أخبار اليوم
قطاع الثقافة

مكتبة إحسان عبد القدوس الكاملة



إحسان عبد القدوس

لا تطفئ الشمس

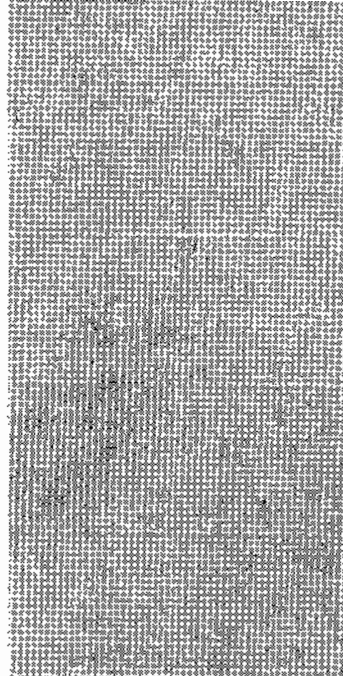


الجزء الأول

إحسان عبد القدوس

لا تطفئ الشمس

الجـــزء الأول



الإخـــراج الفــنى :

أحمـــــد الســـعيد

الغلاف بريشة الفنان :

عمـــــروفهـــمى



الحيـاة مبـادىء .. ابحث عن
مبادئك .. تجـد حيـاتك ..

إحسـان

إهــداء ..

إلي السـيدة التي عـبرت مـعى ظـلام الـحـيــرة ، والـحب فى قلبـينا.. حتـى وصلنا معـا إلى شاطىء الشمس.
إلى الـهــدوء الـذى صـــان لى ثورتى.. والصــبــر الذى رطب لهفتى.. والعقل الذى أضاء فنى.. والصفح الذى غسل أخطائى..
إلى حلم صــبـاى.. وذخـيـرة شبابى.. وراحة شيخوختى..
إلى زوجتى..
والحب فى قلبينا..

إحسان عبد القدوس

٢ مارس ١٩٥٩





• أحمـد •

إدارة المعاشات بوزارة المالية.

وكانت الساعة الثانية عشرة ظهرا عندما قفز أحمد واقفا من وراء مكتبه، وحمل في يده كتابا ضخما باللغة الانجليزية عنوانه «أعمال برنارد شو» ثم رفع يده الأخرى



يحيى زملاءه :

- السلامو عليكو بأه يا جماعة.

ورفع زملاؤه رؤوسهم إليه، ونطقوا فى صوت واحد :

- وعليكم السلام، ورحمة الله.

ثم انفرد صوت من بينهم يقطر حسدا وحقدا، وقال من خلال ابتسامة صفراء :

- مع السلامة يا أحمد بيه.

وخرج أحمد يسير فى الممر الطويل الرطب، وعلى وجهه أمارات وقار مفتعل، وشفتاه مضمومتان كأنه يحبس خلفهما ضحكة كبيرة.. ثم نزل السلم، وخرج إلى فناء الوزارة.

وتقدم منه أحد السعاة وهو ينحنى بين يديه قائلا :

- تاكسى يا أحمد بيه ؟!

ورد أحمد فى صوت وقور، وفى عينيه نظرات جادة كأنه فى طريقه إلى مهمة خطيرة :

- أيوه.. بسرعة !

وهرول الساعى إلى الشارع يستدعى سيارة أجرة.

ووقف أحمد على سلم الوزارة وقد شد قامته الطويلة ونفخ صدره

العريض، والنظرات الجادة لا تزال تملأ وجهه الأسمر القوي، ويده فى جيب بنطلونه.. كأنه أحد كبار الموظفين.. كأنه أكبر من سنه.. رغم أنه موظف في الدرجة السادسة، وسنه لا يتجاوز الخامسة والعشرين.. وكل ما يميزه عن موظفى الدرجة السادسة، وما يميزه عن سن الخامسة والعشرين، أنه معفى من التوقيع على ساعة الوزارة.. إنه يستطيع أن يذهب إلى مكتبه فى الساعة العاشرة صباحاً، ويخرج منه فى الساعة الثانية عشرة، دون أن يوجه إليه لفت نظر، أو يوقع عليه خصم من مرتبه..

وهو لم يعف من التوقيع على الساعة والارتباط بمواعيد العمل، بقرار من الوزير، أو لطبيعة العمل الذى يقوم به.. أبدا.. لقد كان من أحرص الموظفين على مواعيد العمل عند بدء تعيينه منذ عام واحد.. ومضت شهور طويلة، وهو يذهب إلى مكتبه فى الساعة الثامنة صباحا، ولا يغادره إلا فى الساعة الثانية بعد الظهر.. ثم فجأة اكتشف أنه لا يعمل شيئا.. والأعمال التافهة القليلة التى تعرض عليه لا تستغرق من الوقت الذى يقضيه فى المكتب أكثر من نصف ساعة. باقى وقته يقضيه فى قراءة الصحف وفى تبادل أحاديث تافهة مع زملائه، وفى انتظار أن يستدعيه رئيسه.. ثم لم تعد الصحف تكفيه لقتل الوقت، وضاق بأحاديث زملائه، ورئيسه لا يستدعيه إلا نادرا.. فبدأ يحمل معه كل يوم كتابا من الكتب التى يهوى قراءتها.. كتب الأدب والتاريخ.. ويقضى وقته فى قراءتها.

ثم تطور أكثر من ذلك.. لقد أحس أنه منافق كبير إذ يذهب إلى مكتبه بإدارة المعاشات ليقرأ كتابا فى الأدب.. وصحيح أنه يستفيد من قراءة هذا الكتاب أكثر من استفادته من قضاء وقته فى الحديث مع زملائه وانتظار أن يستدعيه رئيسه.. وصحيح أيضا أن الحكومة إذا كانت قد عجزت عن أن تستفيد من جهده نظير المرتب الذى تدفعه له، فأجدى عليه وعلى الحكومة أن يستغل هذا المرتب فى تثقيف نفسه بالأدب والتاريخ.. ولكن.. رغم كل هذا، فمكاتب إدارة المعاشات لم تخصص لقراءة الأدب والتاريخ.. وهو منافق إذ يجلس إلى مكتبه فى إدارة المعاشات ويقرأ كتابا لألدوس هكسلى أو عبد الرحمن الرافعى.. إنه أكثر من منافق.. إنه جبان، يستسلم للفوضى الحكومية لقاء حرصه على تقاضى مرتبه.. مرتب لا يستحقه، ولا

يستحق مثله كثير من زملائه موظفى الحكومة.

وعندما وصل إلى هذا الحد من تفكيره، ثار على نفسه.. وقفز ـ يومها ـ من وراء مكتبه فجأة كأن ثورته أشعلت النار فى ثيابه، ونظر إلى زملائه وقد احتقن وجهه، وقال كأنه يتحداهم جميعاً:

السلام عليكو.

ونظر إليه زملاؤه ـ يومها ـ فى دهشة ثم علت شفاههم ابتسامات ساخرة، وقالوا فى أصوات متتالية كأن كلا منها صدى للآخر :

ـ وعليكم السلام.. ورحمة الله وبركاته.

ثم نكسوا عيونهم وعادوا إلى ما كانوا فيه.. دون أن يعبر أحد عن دهشته بكلمة.

وقضى أحمد ذلك اليوم والليل الذى أعقبه، وهو يرتب الكلمات التى سيواجه بها رئيسه فى الصباح التالى، عندما يسأله عن سبب انصرافه قبل موعد انصراف الموظفين.. سيقول له : إنه لا يستطيع أن يقضى وقته فوق مكتبه دون أن يعمل شيئا.. وأنه لا يعتبر مقصرا فى عمله بخروجه قبل موعد الانصراف، لأن ليس لديه عمل يقصر فيه.. و.. و.. وسيصر على رأيه.. أما أن يعهد إليه بعمل.. أو يبيح لنفسه حق الخروج والدخول وقتما يشاء.. وإلا.. فهو يقدم استقالته !

وذهب إلى مكتبه فى إدارة المعاشات فى اليوم التالي، ووجهه لا يزال محتقنا، كأنه يختزن ثورة تحت جلده.

ومضت ساعة وساعتان.. وبلغت الساعة الثانية دون أن يستدعيه رئيسه، بل دون أن يعلق أحد من زملائه على انصرافه المفاجى فى اليوم السابق.

ثم تذكر.

تذكر شيئا لم يكن يحسب حسابه.

تذكر أن خاله هو وكيل الوزارة.

وهو لم يكن قد نسى هذه الحقيقة، ولكنه كان يتجاهلها.. كان يعتقد أن هذه الحقيقة لا يمكن أن يكون لها أثر على تصرفاته داخل الوزارة، أو على معاملة رئيسه له، أو على شعور زملائه نحوه.. ولكن يبدو أن هذه الحقيقة

ـ حقيقة أن خاله هو وكيل الوزارة ـ هى كل شىء بالنسبة لشخصيته فى الوزارة.. وأنه إذا كان قد استطاع أن يتجاهل هذه الحقيقة، فإن كل من حوله لم يستطع أن يتجاهلها.

إن رئيسه لا يعهد إليه بعمل حرصا على راحته.. راحة ابن أخت وكيل الوزارة.. وفى المرات القليلة التى يستدعيه فيها، يقف له ويخرج من وراء مكتبه، ويتقدم إليه وبين شفتيه ابتسامة كبيرة، ثم يصافحه فى حرارة مفتعلة «ازيك يا أحمد.. بيه.. على الله تكون مرتاح فى الشغل».. ثم يجلسه بجانبه ويأخذ فى التحدث إليه عن متاعبه، وعن العبء الكبير الملقى عليه، وعن الخدمات الكثيرة التى يؤديها للدولة.. ثم.. ثم عن تأخر ترقيته، كأنه يبلغه رسالة لينقلها إلى خاله وكيل الوزارة.. وهذا هو كل شىء.. لم يحادثه مرة فى عمل جدى من أعمال إدارة المعاشات، ولم يعهد إليه أبدا بعمل يمكن أن يؤديه.

وكذلك زملاؤه.. لا يستطيعون أن ينسوا أنه ابن أخت وكيل الوزارة.. إنهم يعاملونه بأدب مفتعل لا يعاملون به بعضهم بعضا، ويسدلون بينهم وبينه ستارا من النفاق، ولا يشركونه فى أسرارهم.. إنهم يعاملونه كأنه جاسوس عليهم.. كأنه هو شخصيا وكيل الوزارة.

والسعاة.. إنهم يجرون بين يديه، وينحنون أمامه، انحناءة أكبر من انحناءاتهم أمام رئيسه.. وقد كان يعتقد أن هذا الاحترام ليس إلا طمعا فى البقشيش الذى يفيض به عليهم.. ولكنه ليس البقشيش وحده.. إن خاله هو وكيل الوزارة.

وقد بذل كثيرا من الجهد منذ أول تعيينه فى وظيفته حتى ينسى من حوله هذه الحقيقة، وحتى ينساها هو نفسه.. كان يبدى لرئيسه احتراما شديدا.. وكان يتبسط مع زملائه ويحاول أن يندمج فيهم.. كان يخفى أربطة عنقه الأنيقة وقمصانه الحريرية ولا يذهب إلى الوزارة إلا وفوق صدره رباط عنق عادى، وقميص من القطن.. وكان يشاركهم فى طلب ساندويتش الفول كل صباح، رغم أن الفول يربك أمعاءه.. كان يحاول أن يصل إليهم ويكون واحدا منهم.

ولكن جهوده كلها، إذا كانت قد انتهت بأن أمالت قلوب زملائه إليه،

وشهدوا له بدماثة الخلق، فهى لم تقنعهم بأنه واحد منهم، ولا أنستهم أنه ابن أخت وكيل الوزارة.. بل إن بينهم من لا يخفى حقده عليه.. حقد جبان مستتر.. كحقد زميله الأستاذ فرحات عبد الله عبدالخالق.

وإزاء هذا الإصرار، بدأ أحمد يستسلم لهذه الحقيقة.. حقيقة أنه ابن أخت وكيل الوزارة.. وبدأ يتقبل الامتيازات التى يسبغها عليه النفاق والجبن الاجتماعى، دون اكتراث.. لم يعد يخجل من تمييز نفسه على زملائه.. بل كان يحس بأنه ـ وهو يتمادى فى منح نفسه امتيازات ليست من حقه ـ كأنه يعاقب زملاءه.. يعاقبهم على نفاقهم وجبنهم وعلى رفضهم اعتباره واحدا منهم.. واحد يتساوى معهم فى الحقوق والواجبات، رغم أن خاله وكيل الوزارة.

وكان أول الامتيازات، أن أعفى نفسه من التوقيع على الساعة.. لم يعد يتقيد بمواعيد الحضور والانصراف.. كان يذهب إلى مكتبه فى العاشرة، ويخرج فى الثانية عشرة.

ولم يكن سعيدا بهذه الامتيازات.

كان يحس بتفاهته.. كان يحس بأنه لا شيء.

ومنذ أن تفتح وعيه وهو يتمنى أن يكون شيئا.. ولكنه لم يكن يدرى أى شيء يمكن أن يكونه.. إنه لا يستطيع أن يكون أى شىء، لا يريد أن يقوم بعمل يستطيع أى رجل آخر أن يقوم به.. هناك شىء يريده.. شىء خاص به.. شىء لا يستطيع أن يقوم به إلا هو، دون كل الناس.. ولم يكن يبحث عن هذا الشىء حوله.. بل كان يبحث عنه فى داخله.. فى أعماقه.. وقد التحق بكلية الحقوق وهو يعلم أنه لا يريد أن يكون محاميا.. إنه لا يستطيع أن يكون محاميا.. وخلال سنوات الجامعة قرأ كثيرا من الكتب التى يهوى قراءتها.. كتب الأدب والتاريخ والفلسفة والمذاهب السياسية.. وكان وهو يقرأ لا يكتفى باستيعاب المعانى، بل كان كأنه يحاول أن يجد نفسه بين السطور.. يحاول أن يكتشف ماذا يريد أن يكون؟ هل يريد أن يكون نابليون.. سقراط.. روبسبير.. غاندى؟ هل يريد أن يكون أحد المناضلين الاشتراكيين.. أم يريد أن يجاهد جهاد روتشلد وروكفلر.. أم يريد أن يكون أحد شهداء ثورة وطنية؟ إنه لا يدرى.. إنه لا يعرف ما يريد.. ونفسه القلقة

الحائرة لا تستقر على أرض، بل تتنقل كل ساعة فى خيال جديد.. ورغم ذلك ففى هذه النفس القلقة شىء مستقر.. ولكنه شىء بعيد لا يستطيع أن يصل إليه، لا يستطيع أن يمسك به بين يديه، ويعرف كنهه.. شىء له بريق كبريق الماس.. ولكن قطعة الماس فى منجم عميق، وعليه أن يحفر الأرض كلها حتى يصل إليها.. يحفر نفسه..

وبعد أن تخرج فى كلية الحقوق، لم يحاول أن يبحث عن عمل.. فلم يكن يعرف ماذا يريد وماذا يستطيع أن يعمل؟ جلس فى بيته واستطرد فى قراءاته.. ثم لم يعد يكتفى بالقراءة، فأخذ يتردد على مجتمعات كثيرة مختلفة متناقضة.. كان يذهب ويجلس فى المقاهى البلدية فى حى الحسين والسيدة زينب.. ويظل شهرا أو شهرين يتردد على هذه المقاهى بانتظام حتى يعرفه روادها ويعرفهم.. ثم فجأة ينتقل إلى مقاهى شارع فؤاد وشارع سليمان باشا وميدان الأوبرا، ويعيش فيها بين طبقة الموظفين كبارهم وصغارهم، وطبقة الأعيان.. ثم التحق بالنادى الأهلى.. ثم استطاع أن يلتحق بنادى الجزيرة.. ولم يكن يستطيع أن يندمج فى كل هذه المجتمعات.. كان يقف منها موقف المتفرج الدارس.. وكان يبحث فيها عن نفسه أيضا.. عن الشىء الذى يريده.. كان ينظر إلى بائع «لحمة الرأس» وهو جالس فى مقهى الفيشاوى بحى الحسين، ويسائل نفسه: «هل أستطيع أن أكون بائع لحمة رأس.. وهل أريد؟».. ثم ينظر إلى أحد كبار الموظفين، وهو جالس فى ملهى «ماتتيا» أو فى النادى الأهلى، ويسائل نفسه: «هل أريد أن أكون من كبار الموظفين.. وهل أستطيع؟».. و.. و.. كانت جولاته الاجتماعية بمثابة رحلة فى عالم البشر يبحث خلالها عن نفسه.. رحلة يستعرض فيها أنواع الناس، ليحدد النوع الذى ينتمى إليه هو.

ومر عام على تخرجه فى الجامعة، وهو لم يجد بعد نفسه، ولم يعرف ماذا يريد أن يكون، سواء من خلال قراءاته الكثيرة أو من خلال رحلاته بين الناس.

ولم يكن مضطرا من الناحية المادية إلى أن يعمل أى عمل يرتزق منه.. إن والدته تمتلك عمارة فى وسط القاهرة تدر دخلا شهريا قدره ثمانون جنيها، وتمتلك البيت الكبير الذى يقيمون فيه ومعاش والده يصل إلى خمسين جنيها فى الشهر.. وكل ذلك يكون إيرادا يكفى لتعيش العائلة فى مستوى لائق.

ولم يكن ينوى أن يعتمد على دخل العائلة طوال حياته.. إنه ليس متعطلا، وليس خاملا.. ولكنه يقوم بعمل شاق.. إنه يبحث عن نفسه.. يبحث عن قيمته الحقيقية فى الحياة.. يبحث عما يستطيع أن يؤديه لنفسه وللناس.. وهى مهمة شاقة يتعذب ويشقى بها.. يتعذب بالحيرة، والقلق، واللهفة على معرفة مواهبه.. وهو ليس متباطئا.. إنه متسرع .. إنه يقضى نهاره وليله كالمجنون، يقرأ ويستعرض، باحثا عن نفسه.. وهو يعلم أن كل من حوله ينظرون إليه فى انتظار أن يبدأ فى العمل.. أن يبدأ فى الارتزاق.. وهو يستطيع أن يقرأ الأسئلة الكثيرة التى تنطق بها عينا أمه، وعيون إخوته.. بل إن أمه بدأت تلمح فى حديثها إليه كأنها تنبهه إلى واجبه ومستقبله.. ثم أصبح تلميحها تصريحا، وبدأت تحثه على أن يعمل.. ولم يكن يهمها ماذا يعمل ؟ فقط تريد أن تراه يعمل.. أى عمل.. وخاله وكيل الوزارة، إنه لم يعفه أبدا من نصائحه .. وكل ذلك كان يضغط على صدره.. ويؤرقه.. ويعصر أعصابه.. ويشعره بالنقص.. يشعره كأنه لص يسرق رزق أمه وإخوته.. لماذا لا يتركوننى أبحث عن نفسى.. لماذا يلاحقوننى بعيونهم وإلحاحهم.. ماذا يعود عليهم إذا قبلت أى عمل تافه من الأعمال التى تعرض على خريجى كلية الحقوق.. وكان هذا الصراخ لا يتجاوز صدره، إنه يكتمه فى أعصابه ويتجاهل إلحاح العائلة عليه بأن يجد لنفسه عملا.. أى عمل.. فهو لن يقبل أى عمل.

ثم..

ثم جاء خاله عزت «بيه» راجى.. لزيارتهم، فى أحد الأيام.. وكانت زيارة خاله لهم لها واقع كبير بين أفراد العائلة. إنه عميدهم بعد أن توفى الأب.. وهو إنسان جاد.. جاد حتى وهو يضحك.. ولم يكن من عادته أن يأمر أبناء أخته، أو يقسو عليهم.. ولكنه يسيطر عليهم بمظهره الجاد المحترم، وبالتقاليد الصارمة التى يضعها بينه وبينهم، بثقة الأم فيه وحاجتها إليه.. وكان أحمد يحترمه.. ويحبه.. وكان يضعه دائما موضع دراسته.. كان يحاول أن يدرس طباعه وعقليته، وكان يسأل نفسه دائما : «هل يستطيع أن يكون كخاله؟» وكان يعتقد أن خاله إنسان سعيد.. كان يخيل إليه أن هذا الكرش الضخم، وهذا اللغد الذى يتدلى من تحت رقبته، إنما يخفيان كنزا

من السعادة.. ولم يكن يعتقد أن خاله سعيد لأنه وكيل وزارة، بل لأنه راض عن نفسه منذ كان شابا موظفا فى الدرجة السادسة.. وأحمد لا يريد إلا أن يكون راضيا عن نفسه، كرضاء خاله عن نفسه.. وهو لن يرضى عن نفسه إلا إذا وجدها أولا.. إلا إذا عرف ماذا يريد أن يصنع بنفسه؟

وجلس الخال مع أفراد العائلة برهة ثم قام واقفا وأشار إلى أحمد قائلا:

– تعال يا أحمد.. عايزك فى كلمتين.

ثم دخل إلى غرفة المكتب.. التى كانت غرفة مكتب الأب المتوفى.. وجلس على مقعد عريض من الجلد، ومد ساقيه أمامه ليريح فوقهما كرشه، ثم قال فى صوت جاد وبين شفتيه ابتسامة خفيفة:

– قررت إيه يا أحمد؟

وقال أحمد وهو يجلس فى أدب على حافة المقعد المقابل:

– فى إيه يا خالى؟!

وقال عزت «بيه» وهو لا يزال محتفظا بابتسامته الصغيرة:

– فى مستقبلك.. حاتشتغل محامى ولا حاتتوظف، ولا حاتعمل إيه؟!

وارتعشت رموش أحمد فوق عينيه، وقال وهو لاينظر إلى خاله:

– والله أنا باشوف إنى أستنى شويه.. أنا لسه محتاج إنى أثقف نفسى.. وحضرتك عارف إنى ما بالعبش، إنما باقضى وقتى كله فى القراءة.

ونظر عزت «بيه» إلى بوز حذائه، وقال:

– عارف.. عارف إنك بتقرأ كتير.. إنما الثقافة مالهاش نهاية.. الواحد يفضل يقرأ لغاية مايموت، ولسه ماقراش كل اللى لازم يقرأه.. إنما مادام خدت الليسانس، يبقى لازم تشتغل.. وتفضل تقرأ برضه.

وقال أحمد كأنه يهم بالبكاء:

– بس حاشتغل إيه؟!

ونظر إليه خاله فى عينيه وقال:

– مادام مش ناوى تشتغل محامى.. يبقى مافيش إلا أنك تتوظف!

وعاد أحمد يقول وقد بدا ضيق صدره فى صوته:

- حاتوظف فين.. أنا ناجح بدرجة مقبول، يعنى لا أقدر أتوظف فى الجامعة، ولا فى النيابة.. و..

وقاطعه خاله:

- أنا حاخدك عندى.

وقال أحمد فى دهشة:

- فى وزارة المالية.. ده أنا متخرج من الحقوق!

وقال عزت «بيه» فى هدوء:

- يعنى هيه المالية مافيهاش قانون، ولا إيه؟!

وقال أحمد كأنه يدافع عن نفسه:

- يا خالى الوظيفة اللى حاأخدها، يمكن يكون غيرى أحق بيها منى.. أنا مش محتاج للمرتب.. ويمكن بعد شوية أقدر ألاقى حاجة أكبر أعملها.. أألف، ولا أفتح شركه.. ولا أى حاجه.

وقال عزت «بيه» فى حزم، وقد أغلظ صوته، وطغت على لهجته آثار رنة تركية قديمة:

- ماتنساش يا أحمد إنك أكبر إخواتك.. وأنت المثل بتاعهم.. لازم تكون راجل مسئول.. أنت خلاص بقيت راجل.. والراجل لازم يشتغل.

وسكت أحمد برهة ، ثم قال بصوت خافت:

- زى ماتشوف يا خالى.

وقال عزت «بيه» وهو يحمل كرشه بمشقة ويقوم به من على مقعده:

- فوت علىّ بكره الساعة حداشر فى الوزارة.

وقال أحمد كأنه يتنهد:

- حاضر..

وخرج عزت «بيه» راجى من الغرفة، وترك أحمد فيها، لا يزال جالسا على حافة المقعد، وعيناه تائهتان.. ولم يكن يفكر فى الوظيفة التى أعدها له خاله، بل كان يفكر فى إخوته.. إنه كبيرهم.. إنه بمثابة رب العائلة.. ومنذ سنين وهو يحاول أن يبدو بينهم كرب العائلة.. ويحاول أن يقنعهم بأنه يحمل مسئوليتهم.. ولكنه لم يسع أبدا إلى تحمل هذه المسئولية، ولم يتعمد أن يكون ربا للأسرة.. لقد حدث كل ذلك بالصدفة.. وجد نفسه فجأة ربا صغيرا يحمل مسئولية عائلة.



كان ذلك وهو فى الخامسة عشرة من عمره.. وتوفى والده.. ولم يحدث شىء عقب الوفاة.. لم يتغير نظام العائلة. ولم تحدث مشاكل.. ولم يحس أحمد بأنه أصبح مسئولا مسئولية جديدة.. لقد حملت أمه العبء كله.. وقد كانت تحمله حتى قبل وفاة والده.. وكانت أما حازمة، عاقلة، طيبة، استطاعت أن تربط العائلة كلها برباط من الحب والتآلف رغم التباين الكبير بين طباع أفرادها، وكانت مثقفة ثقافة بنات الأسر الكبيرة، ولكنها كانت تعتمد على ذكائها وشخصيتها أكثر من اعتمادها على ثقافتها.. وكانت أما متطورة تمنح بناتها الثلاث قدرا كبيرا من الحرية وتشجعهن على الاستمرار فى العلم، وتعدهن بإدخالهن الجامعة، ولكن كل ذلك فى حدود تقاليد صارمة.. تقاليد الأسر العريقة.. فليس من بناتها من تهوى الرقص، أو من تشترك فى ناد، أو من تلبس البنطلون.. كما كانت تربى ولديها على استكمال شخصيتهما.. كانت تعاملهما كرجلين حتى فى حياة والدهما.

ومرت أربعة أعوام بعد وفاة الأب، وأحمد لا يحس بأنه أكثر من واحد من إخوته.. كل ما يتميز به هو أنه أكثرهم هدوءا، وأكثرهم حبا وتعلقا بأمه. حب صامت صلب، ليس له مظهر إلا الاحترام الشديد والطاعة العاجلة.. ولم يكن له أبدا مطالب يثقل بها على أمه، خصوصا المطالب الخاصة بالنقود.. كان يقبل منها أى شىء.. وفى أحيان كثيرة كان يرفض بعض ما تعطيه عندما لا يكون فى حاجة إليه.. كانت تعطيه جنيها فيعيد لها خمسين قرشا.. وعندما تعترض أمه، يقول وبين شفتيه ابتسامة حبه:

- خليهم عندك لغاية ما أكبر، وأحتاج لهم.

ولم يكن يعنى أن يحتفظ بالنقود لنفسه لدى أمه.. إنما كان حبه يدفعه بلا تعمد منه إلى رد النقود إليها، كمظهر من مظاهر تخفيف العبء عنها.

وكان فى كل ذلك بعكس أخيه ممدوح.. كان ممدوح أصغر منه بخمس سنوات.. كان شيئا آخر.. كان يملأ البيت صخبا وصراخا وضحكا.. وكان يقبل على الحياة بعنف.. وكان عمليا فى تصرفاته.. جريئا.. أصر وهو صغير على أن تكون له دراجة.. ثم لما كبر أصر على أن يشترى «موتوسيكل».. ثم بدأ يفكر فى أن يشترى سيارة.. وكان يصر على رغباته ويدافع عنها ويتحايل للوصول إليها، وأحيانا يتحدى أمه.. ويصرخ فيها..

ولا يوقفه شيء إلا أن تطرده أمه من أمامها وتغلق على نفسها الباب دونه.

وكان ممدوح محبوبا من أفراد العائلة.. ولكن أحمد كان يحس نحوه بأكثر من حب.. كان معجبا به.. كان معجبا بالحياة العنيفة الثائرة التى يحياها.. كان معجبا بجرأته فى ركوب الدراجة ثم ركوب الموتوسيكل.. معجباً بإصراره على مطالبه وإقباله على الحياة.. بلا خوف وبلا تردد..

ورغم أن ممدوح لم يكن يطلع أحمد على حياته الخاصة وجولاته مع أصدقائه.. فقد كان أحمد يستطيع أن يتخيل هذه الحياة.. حياة مليئة بالضحكات.. والصراخ.. صراخ الجسد وصراخ العقل.. إن ممدوح على الأقل يعرف ما يريد.. يعرف أنه يريد دراجة.. ويريد موتوسيكل.. ويريد نقودا.. ويريد أن يذهب إلى السينما.. ولكن أحمد لا يعرف ما يريد.. إنه فى الواقع لم يرد شيئا أبدا طوال حياته.

إلى أن كان يوم.. وكان أحمد جالسا يقرأ كعادته فى غرفة المكتب.. التى كانت غرفة مكتب والده.. ثم سمع مناقشة حادة بين ممدوح ووالدته.. وانتظر أن تنتهى المناقشة كما انتهت غيرها من المناقشات.. ولكن المناقشة تشتد ولا تنتهى.. وصوت ممدوح يعلو على صوت والدته، ثم سمعه يقول لها صارخا:

– انتى بتودى الفلوس فين.. أنا عايز أعرف الفلوس بتروح فين.

سمع أحمد هذه الكلمات، ووجد نفسه بلا وعى منه، ينتفض واقفا.. ويذهب إلى غرفة أمه، ثم يرفع كفه ويهوى بها على صدغ أخيه ممدوح.

وأفاق أحمد على صوت الصفعة.. وانتظر أن يرد عليه ممدوح بصفعة مماثلة أو على الأقل يصرخ فيه.

ولكن ممدوح سكت.

وضع كفه على موضع الصفعة وسكت.. ثم أرخى عينيه، وخرج من الغرفة.

وسكتت أمه أيضا.

وسكت أخواته البنات.

ولم يكن هذا السكوت يحمل معنى الاعتراض أو الاحتجاج عليه.. لقد كان سكوتا يشع بالاحترام العميق، والتقدير.. وعيونهن ملتفة حوله كأنها

تهنئه على صفعته لأخيه.. كأنها تهنئه على تولى سلطاته الشرعية.

وأحس أحمد بالحرج والارتباك أمام هذا الصمت.. لقد كان مستعدا أن يعتذر لأخيه.. كان مستعدا أن يجرى وراءه ويتوسل إليه أن يرد له الصفعة، أو أن يسبه، أو يفعل أى شىء يبدد هذا الصمت الذى يحس بثقله فوق كتفيه.

وساعتها.. ساعتها فقط.. أحس أحمد بمكانته بين أفراد العائلة.. إنه أكبر الأخوة.. إذن.. فهو رب العائلة.

ومن يومها وأحمد يحمل مسئولية العائلة.. ولكنها ظلت دائما مسئولية نظرية.. مسئولية فى نطاق إحساسه الداخلى.. أما المسئولية الفعلية فتحملها أمه.. وصحيح أن أمه كانت تعرض عليه دائما ما يجد من شئون العائلة.. وصحيح أن أخوته البنات كن يحملن إليه مشاكلهن الصغيرة.. وأخوه ممدوح بدأ - بعد الصفعة - يحاول أن يحتفظ برضائه، ويتودد إليه، تودد الأخ الصغير المعترف بمكانة الأخ الكبير.. ولكن كل ذلك لم ينف أن مسئوليته تجاه العائلة، ظلت مسئولية نظرية.. وأمه هى التى تتولى كل شىء.. هى التى تمسك بإيراد العائلة، وهى التى تتولى كل شىء.. هى التى تمسك من الحكومة، وهى التى تراقب الأخوة فى دراستهم، وتتولى حل مشاكلهم.. فإذا جد شىء يعجزها استعانت عليه بأخيها وكيل الوزارة.

وهذه المسئولية النظرية تركت أثرا كبيرا فى تصرفات أحمد.. وفى مظهره.. لقد أصبح يحرص دائما على أن يبدو جادا وقورا فى حديثه، وفى مشيته، حتى وهو لم يصل بعد إلى العشرين من عمره.. وأصبح يتجنب الحياة التى يحياها مثله من الشبان.. كان لا يسهر خارج البيت.. ولا يتردد على الملاهى التى يتردد عليها زملاؤه.. ولا يركب دراجة.. ولا يجاهر بالغناء أمام أحد من أخوته.. ولا يحاول أن يغازل فتاة، أو يتعرف إلى فتاة.. إنه إلى الآن - وهو فى الخامسة والعشرين - لم يقرب فتاة.. ولا امرأة.

دائما جاد وقور.. كخاله، فقد كان يقلد خاله فعلا، لم يكن هذا الوقار يعبر عن شخصيته، ولكنه كان يستعيره من شخصية أخرى.. شخصية خاله.. وقد ساعدته قامته الطويلة، وصدره العريض، ووجهه الأسمر القوى،

على الاحتفاظ بمظهر الوقار.. مظهر يخفى تحته نفسه القلقة الحائرة، وشخصيته التائهة التى لم يستطع أن يحددها ويرسم خطوطها بعد.. وكان فى أحيان كثيرة يضيق بهذا الوقار الذى يكسو به وجهه.. كان يحس برغبة جامحة فى أن يصرخ، أو يرقص، أو يتزحلق على حاجز السلم كما كان يفعل وهو صغير.. وكانت هذه الرغبة تستبد به أحيانا، فيقف أمام المرآة فى غرفته ويلعب حاجبيه، ويخرج لسانه، ويشكل وجهه فى أشكال غريبة مضحكة.. أو كان ينطلق فى الغناء، ويختار أغنيه خليعة وأكثر الأغانى التى سمعها خلاعة.. ثم يفيق إلى نفسه فجأة فيبتعد عن المرآة، أو يكف عن الغناء، ويعود يكسو وجهه بالوقار، حرصا على مظهره كرب العائلة.

وقد ترك هذا الوقار المفتعل أثرا أعمق فى نفسه.. إنه لم يعد يشكو متاعبه لأحد.. لم يعد يشكو لأمه ولا لأحد من إخوته.. لم يعد يشكو قلقه وحيرته وضياع نفسه.. وتراكمت طبقات الكبت فى نفسه حتى أصبح يحس بأنه محروم من الحنان.. جائع للحنان.. إنه يحس أحيانا بأنه يريد أن يضع رأسه على صدر أمه ويبكى، ولكنه لا يستطيع، يحس إنه يريد أن يجلس إلى أخته ويحكى لها آلام نفسه.. ولكنه لايستطيع.. لقد ضحى بحاجته إلى الحنان فى سبيل مظهره كرب عائلة.

وفى سبيل العائلة.. وتحت ضغط مسئوليته النظرية كرب أسرة.. خضع لإلحاح خاله، وذهب إليه ليعينه فى وزارة المالية.

وقد كان أحمد يعتقد أن خاله سيعينه فى مصلحة الضرائب، أو سكرتيرا له، أو فى مركز محترم يستطيع أن يشغله خريج كلية الحقوق.. ولكن خاله عينه فى إحدى الإدارات البعيدة عن المراكز الرئيسية فى الوزارة.. فى إدارة لايمكن أن يكون فيها مجال للتقدم ولا لإظهار المواهب.. إدارة قاصرة على الصرافين وكتبة الحسابات.. وربما كان خاله قد جبن عن أن يعينه فى إحدى الإدارات الرئيسية، حتى لا يتهم باستغلال نفوذه.. كأنه وهو يعينه، يدارى فضيحته، يدارى جريمة، يمكن أن يحاسب عليها!.. ورغم ذلك فقد قبل أحمد وظيفته فى إدارة المعاشات، دون اعتراض قبلها كتجربة جديدة.. ومن يدرى.. لعله يجد نفسه فى هذه الوزارة، لعله يكتشف مواهبه، لعله يستريح من القلق والحيرة.

ولكن..

كل ما وجده أحمد فى إدارة المعاشات، إنه ابن أخت وكيل الوزارة.



وعاد الساعى متعلقا بسيارة مـن سيارات الأجرة.. ثم قفز منها قبل أن تقف تماما ، وفتح بابها، وقال وبين شفتيه ابتسامة كبيرة :

– اتفضل يا أحمد بيه..

وتقـدم أحمـد فى خطى بطيئـة، ويده لا تزال فى جـيب بنطلونه.. ثم أخرجـها ودس فى يد الســاعى ورقة من ذات القـروش الخمســة.. وانحنى ليدخل قامته الطويلة فى السيارة.. وقال فى صوت وقور :

– نادى الجزيرة يا أسطى..

واستدار الساعى وعاد إلى داخل مبنى الوزارة، دون أن ينظر مرة ثانية إلى أحمد، كـأن قيمة أحـمد فى نظره لا تساوى إلا هذه القروش الخـمسة التى دسها فى يده.

وخرجـت السيارة إلــى ميدان لاظـوغلى، واستـدارت إلى شارع قـصر العينى.. ثم اتجـهت إلى كوبرى قصــر النيل.. وبدأ أحمـد يدندن فى صوت خفيض أغنية : مال الهوى يا أمه مال.. ثم تـنبه إلى نفسه بعد فترة، فسكت عن الغناء.. ونظر إلى قــفا السائـق ، كأنه يخشى أن يكون مـلتفتـاً ليتـتبع غناءه.. ثم عاد يتطلع من نـافذة السيارة إلى المارة، دون أن يراهم ..مـجرد أشباح تتحرك أمام عينيه التائهتين !

ووصل إلى نادى الجزيرة، ونزل من الســيارة ونقد الســائق أجره.. ثم استـدار فالتقى بعـينى ملاحظ النادى تنظران إليـه.. وتردد : هل يرفع يده يحييه؟ ولكنه لم يرفع يده بالتحية. ثم أعتقد أن الوقت قد فات لتحيته.. فمر من أمامـه وقد ضــغط على حاجبـيه حـتى يبدو أكثـر وقارا.. واتجـه نحو ملاعــب النادى.. وأخذ يســير على الأرض المزروعــة بالحشــيش.. إنه يحب السيــر على الحشائش.. يحس كـأنه يسير على وســائد من الحرير.. يحس بانه يسيــر فى طريق صنعه الله.. يحـس بآدميتــه أكثر مما يــحس بها وهو يسير على طريق من الأسفلت .

وكان يسير نحو لا شىء.. ولعله كـان يبحث عن شىء.. إنه طول حياته

يبحث عن شيء.. وفى عقله مناقشات لا تنتهى، وأسئلة لا يستطيع أن يجيب عنها، وأحاسيس لا يستطيع أن يفسرها.. وهو لا يتتبع دائما كل ما يدور فى عقله.. إنه أحيانا يترك عقله يعمل وحده.. أحيانا يسير وهو يحمل على كتفيه رأسا يتكلم، دون أن يأبه بسماع هذا الكلام، ربما لأنه مله، أو ربما لأنه أحيانا ييأس من أن ينتهى من مناقشاته العقلية إلى لا شيء.

والتفت إلى بعض الأولاد يلعبون الكرة.. ثم عاد وأدار عينيه عنهم، وأخذ يسير فوق الحشيش.. ولكنه بعد فترة يلتفت إلى الأولاد الذين يلعبون الكرة.. ثم وقف مرة واحدة كأنه اتخذ قرارا.. وقف ليرقب الأولاد الذين يلعبون الكرة.. إنه يتمنى أن يلعب الكرة.. يتمنى أن ينطلق كما ينطلق هؤلاء الأولاد.. يجرى ويصرخ ويشوط الكرة.. وأحس أن قدمه تهم فعلا بأن تتحرك وتشوط الكرة.. أو تشوط أى شيء.. وأحس كأنه يجرى.. وكأنه يلهث.. ولكنه لا يزال واقفا في مكانه.

وانطلقت الكرة من بين أرجل الأولاد، واتجهت إلى مكان قريب منه.. وتمنى أن يجرى وراءها ويشوطها.. ولكنه ظل واقفا مكانه.. والوقار لا يزال يكسو وجهه، وقامته الطويلة ممدودة فى اتساق، وصدره العريض منفوخ.. كأنه تمثال جميل من الشمع فى نافذة أحد المحال التجارية.

وخرجت الكرة من بين أرجل الأولاد مرة ثانية، وتدحرجت حتى وصلت إليه.. بين قدميه.. ونظر إلى الكرة.. ثم نظر إلى الأولاد كأنه يسألهم ماذا يصنع بها.. وسمع الأولاد يصيحون فيه «شوط.. احدف.. الكورة من فضلك».. وعاد ينظر إلى الكرة كأنه أمام مشكلة عويصة.. ثم حرك قدمه وضرب بها الكرة ضربة ضعيفة فى اتجاه الأولاد.. ولم تصل إليهم الكرة، وأحس كأن الأولاد ينظرون إليه بامتعاض.. ربما كان احتقارا.. ثم رأى واحدا منهم يجرى ويأخذ الكرة.

واستدار وعاد يسير فوق الحشيش.. فوق وسائد الحرير.. وهو يسائل نفسه: «لماذا لم يضرب الكرة بقدمه ضربة قوية.. لماذا.. لماذا؟ ربما لأنه لم يعد طفلا، ولا يحب أن يبدو كالأطفال.. ولكن، أليس من حق الرجال أيضا أن يلعبوا بالكرة؟ و.. وأحس كأن فى داخل نفسه طفلاً صغيرا يسخر منه.. ورفع قدمه وضرب حجرا صغيرا على الأرض ضربة قوية

رفعته فى الهواء إلى مسافة بعيدة.. كأنه كان يتحدى الأولاد الصغار.. ثم التفت حوله بسرعة كأنه كان يخشى أن يراه أحد وهو يشوط قطعة الطوب.. ثم عاد يشد قامته وينفخ صدره، ومد أصابعه إلى أطراف سترته ليفردها فوق جسده، ثم سار متجها نحو المقاعد الطويلة المنتثرة تحت أشجار الصفصاف.

إنه مكان هادىء من النادى، يلجأ إليه أعضاء النادى الكبار فى السن.. ليقرأوا، أو ليتركوا أمعاءهم تهضم طعام الغداء فى هدوء، أو ليناموا.

وسار أحمد بين العجائز الممددين على المقاعد الطويلة، يبحث لنفسه عن مقعد.. وهو يشعر بالضيق.. يشعر كأنه يحمل نفسه أكثر مما تطيق.. ثم فاض به الضيق فتوقف عن سيره فجأة.. إنه يعلم لماذا جاء إلى النادى؟ إنه لم يجىء ليمدد جسده فوق مقعد بين هؤلاء العجائز.. ولا جاء ليقرأ كتابا.. لقد جاء ليبحث عن فتاة.. فتاة بالذات.. إنه يعلم هذا .. يعلمه جيدا.. فلماذا يخدع نفسه؟ لماذا يهرب من نفسه؟س لماذا يقضى حياته كلها يهرب مما يجده ويبحث عما لا يجده.. وهذه الفتاة قد وجدها.. وجدها فى نفسه.. وجد - على الأقل - أنه يجب أن يراها، أن يكون فى المكان الذى تكون فيه.. والفتاة لا توجد فى هذا المكان، إنها ليست بين هؤلاء العواجيز.

واستدار فجأة، وسار فى خطى مسرعة قوية نحو شرفة النادى التى تطل على حمام السباحة.. ودخل إليها.. ولم يستطع أن ينظر حوله.. إنما التقط بعينيه أقرب مائدة خالية، وجلس إليها ووضع كتابه فوقها.

ومضت فترة وهو ينظر أمامه كأنه يستجمع أنفاسه بعد هذه الخطوة الحاسمة الجريئة التى اتخذها.. ثم أمسك بالكتاب وفتحه، ونظر فيه.. ولكن لم يقرأ شيئا.. لم يستطع أن يقرأ شيئا.. إنه يحس أن الفتاة بجانبه.. ويحس أنها تنظر إليه.. وهو لا يعرف بعد أين تجلس؟ ولكنه يحس بعينيها تطلان عليه من كل اتجاه.. من يمينه، ومن يساره، ومن خلفه، ومن فوقه.. ومد أصابعه وهرش فوق خده هرشة خفيفة، كأن إحدى نظرات الفتاة قد لسعته.. ثم تذكر أنه لم يطلب شيئا من الجرسون فالتفت باحثا عنه.. ولم يكن يريد شيئا من الجرسون.. فقط كان يبحث لنفسه عن حجة يتلفت بها حوله.

والتفت إلى يمينه، ورأى أحد الجرسونات.. ولكنه لم ير الفتاة.. ثم

التفت إلى يساره ورأى جرسونا آخر ولكنه لم ير الفتاة أيضا.. لم يبق أمامه إلا الالتفات إلى الخلف، والالتفاتة إلى الخلف تتطلب مجهودا أكبر.. عاد ينظر فى كتابه ريثما يستجمع شجاعته ليلتفت إلى الخلف.. ثم فجأة التفت.. التفت كأن قوة خارجة عن إرادته لوت عنقه رغما عنه.

ورآها..

كانت تجلس مع إحدى صديقاتها على المائدة التى بجوار مائدته تماما، حتى خيل إليه أن وجهه قد اصطدم بوجهها.. وكانت تنظر إليه.. التقت عيناه بعينيها.. وخيل إليه أنها تبتسم.

ولم تدم التفاتته إلا ومضة.. ثم أعاد رأسه بسرعة، ودفن عينيه فى كتابه، بينما امتدت أصابعه لتهرش خده.

وجلس وظهره لها وهو لا يكاد يتحرك.. بل لايكاد يتنفس.. كأنه كان يخشى أن تعد عليه أنفاسه.

وكان يرى صورتها فى الكتاب.

صورة الرأس الصغير كأنه رأس تمثال دقيق.. والشعر الأسود القصير الذى يتدلى حتى يصل إلى أعلى عنقها.. والأنف الدقيق المرفوع، والشفتين المليئتين، والعينين المشروطتين المكحلتين.. إنها لا تضع من الاصباغ إلا هذا الكحل الذى يحدد عينيها، كأنه ظلال تلقيها ليزداد وضوح النور.. ولون عينيها.. ربما كان عسليا.. وربما كان أسود.. وربما كان مجموعة من الألوان اختلطت ببعضها. إنه لا يدرى، فهو لم يتزود منها أبدا بنظرة قريبة كافية ليعرف لون عينيها.. وعمرها.. ربما كانت فى السابعة عشرة أو فى الثامنة عشرة، كما يدل قوامها النشيط الدقيق.. وربما كانت أكبر من ذلك، فهى تبدو أكثر اتزانا وأقوى شخصية من عمر السابعة عشرة.. لم يرها تقفز، أو تلعب، أو تتحدث وتضحك بصوت عال، أو تتنقل بين الموائد لتعرض ثوبها ورشاقتها.. كان يراها دائما جالسة إلى مائدة وحولها صديقاتها، وهى بينهن كأنها الرئيسة.. كأنها تسيطر عليهن بشخصيتها.. سيطرة ليس فيها املاء، ولا فرض.. ولكنها سيطرة الجاذبية.

وقد قضى أياما طويلة يرقبها.. مضى أكثر من شهر ونصف.. منذ رآها لأول مرة.. وارتاحت عيناه لها.. وبدأ يذهب إلى النادى كل يوم ليرقبها من

بعيد.. كان يحسِ بالهدوء، وبالجمال، وباستقرار روحه، كلما ألقى عينيه فوقها.. وبدأ يرسم لها فى خياله دنيا تعيش فيها.. وكان أحيانا يرسم لها دنيا قريبة من الدنيا التى تعيش فيها إخوته البنات.. دنيا عائلية مستقرة محافظة.. وكان يسائل نفسه: لماذا لا يصحب إخواته البنات إلى النادى مادامت هى تأتى إليه؟ وكان يحس عندما يخطر على باله هذا السؤال، بقطعة من عقله تتمرد عليه.. لا .. إن إخواته البنات لا يمكن أن يترددن على النادى.. لا يمكن أن يكن مثل هذه الفتاة.. لا يمكن أن يجلسن مثل هذه الجلسة بين الرجال وكأنهن فى مقهى عام.. إن أخواته متحررات.. وقد التحقت كبراهن بكلية العلوم، والتحقت الثانية بكلية الآداب، والثالثة تدرس الموسيقى، ولكن تحررهن لا يسمح لهن بالالتحاق بنادى الجزيرة، وقضاء يومهن فى خمول يعرضن أنفسهن متعة لنظرات الرجال أمثاله.

ولم يكن وهو يقارن بين شقيقاته وفتاة النادى يحس بثورة.. لا بثورة على شقيقاته ولا بثورة على الفتاة.. كل ما هنالك إنه يقول رأيه فى هذه الحياة أو تلك.. وقد أقنعته قراءاته الكثيرة بأن الحياة فيها أنواع كثيرة من المجتمعات، وأنواع كثيرة من التقاليد.. وليس هناك مجتمع خير ومجتمع شر.. بل الخير والشر فى كل مجتمع.. سواء فى المجتمع المحافظ أو فى المجتمع المتحرر.. وليس هناك تقاليد صحيحة وتقاليد خاطىء، ولكن الصحيح والخطأ فى كل تقليد.. إن الرقص فيه الصحيح والخطأ.. وعدم الرقص فيه الصحيح والخطأ أيضا.. وإذا كانت أمه لا تؤمن بأن من حق بناتها أن يذهبن إلى النادي، فإن هناك أمهات أخريات لا يؤمن بأن من حق البنات أن يلتحقن بالجامعة.. وأمهات لا يؤمن بأن من حق البنات النظر من الشباك.

كل ما كان يحس به أن أمه وأخواته البنات يعشن فى عالم آخر، غير العالم الذى تعيش فيه بنات نادى الجزيرة.. وكان عندما يخرج من بيته إلى النادى يحس كأنه مسافر من بلد إلى بلد.. من مصر إلى إيطاليا.. وكان يحب السفر إلى إيطاليا، ولكنه يفضل أن يعيش فى مصر.

ولم يكن يطمع فى شيء أكثر من أن يظل يذهب إلى النادى، ويرقب الفتاة من بعيد.. وكان يرقبها بحرص.. يرقبها وهى بين صديقاتها، ثم وهى

تقوم وتدخل إلى بهو السيدات.. ثم تعود.. ثم تنتقل من الشمس إلى الظل.. ويرقبها عندما يأتى بعض الشبان ويجلسون إلى مائدتها.. ماذا يقول لها هؤلاء الشبان؟.. عم يتحدثون؟.. وكان يحاول أن يستمع، فلا يسمع شيئا.. ولكنه كان دائما مقتنعا بأن هذه المائدة التى تجلس إليها هذه الفتاة حتى بمن حولها من الشبان، أكثر اتزانا واحتراما من باقى الموائد التى تجلس إليها باقى البنات.

وكانت الفتاة تنتهى من جلستها فى النادي، ثم تخرج منه، فيقوم هو الآخر ويعود إلى بيته سعيدا، وكأنه تزود بطاقة نفسية تعينه على الحياة.. ولم يكن يفكر فيها أكثر من ذلك.. كانت صورتها تخطر على باله، وتراوده أحيانا وهو فى بيته أو وهو فى مكتبه بإدارة المعاشات.. ولكنها كانت صورة أقرب إلى صورة فيلم سينمائى شاهده وانتهى منه، ثم يعود فى اليوم التالى إلى النادى ليشاهدها أيضا، وكأنه يشاهد فيلما جديدا.

إلى أن كان يوم..

والتقت عيناه بعينيها.. وأحس فى نظرتها شيئا أحرجه.. أحس كأنها كانت تعرف أنه يتتبعها بعينيه منذ أيام طويلة.. منذ أكثر من شهر.. وربما منذ أطلق عليها نظرته الأولى.

وانزعج.. أحس كأنه ارتكب إثما كبيرا.. كأنه ضبط متلبسا بجريمة تمس شرفه واحترامه لنفسه.. جريمة مسحت شخصيته كشاب جاد وقور، يعتبر نفسه ربا صغيرا لعائلة كاملة، مسئولا عن أخوات بنات.

وانقطع بعدها ثلاثة أيام عن الذهاب إلى النادى.. وفى خلال هذه الأيام الثلاثة أخذ يفكر فى الفتاة تفكيرا لم يتعوده من قبل.. إنها أول فتاة فى حياته تصبح موضع تفكيره.. إن صورتها تملأ خياله طوال النهار، وتملأ عينيه طوال الليل.. وهو يحس كأنه لم يعد له طريق ولا هدف.. ليس له طريق إلا الطريق إلى نادى الجزيرة، وليس له هدف إلا أن يراها.

هل هذا هو الحب؟

ولكنه لا يعرفها.. لا يعرف أى شىء عنها.. لا يعرف حتى لون عينيها.. فكيف يحبها؟

وأحس بحاجته إلى أن يسأل الناس فى مشكلته.. يسأل أمه وأخوته..

إنه يريد أكثر من السؤال.. يريد أن يشكو.. يريد أن يلقى رأسه على صدر أمه ويسكب حيرته دموعا.. ولكنه لا يستطيع أن يسأل ولا أن يشكو.. أن أحدا من أفراد عائلته لا يعطيه حق السؤال ولا الشكوى ولا حق الحديث في الحب.. إنه كبيرهم.. إنه رب العائلة الجاد الوقور.

وقد بذل جهدا كبيرا في هذه الأيام الثلاثة ليظل محتفظا بمظهر جده ووقاره.. بقامته المفرودة، وصدره المنفوخ، وحاجبيه المعقدين فوق عينين واسعتين لو حققت فيهما لاعتقدت من فرط براءتهما وصفائهما أنهما عينا طفل.

وفي اليوم الرابع وجد نفسه يذهب إلى نادي الجزيرة، ويجلس في الشرفة المطلة على حمام السباحة.. ولم يلتفت باحثا عنها بعينيه.. ظل ناظرا أمامه كأنه تلميذ خائف عاقبه مدرسه فأمره أن يضع وجهه ملتصقا بالحائط.. ولكنه لم يطق هذا العقاب طويلا.. فبدأ يتسلل بعينين مترددتين خجلتين باحثا عنها.. والتقى بعينيها.. كانت هي الأخرى تنظر إليه.

وأدار عينيه بسرعة قبل أن يعرف ما في عينيها.

وفي يوم تال التقى بعينيها مرة أخرى في نظرة مختلسة.. ثم نظرة مختلسة ثم ثالثة.. ورابعة.. و..

ولم يعد لديه شك في أنها تبادله النظر.. وربما لمح ظل ابتسامة فوق شفتيها.. وربما لاحظ أنها تختار أقرب مائدة إليه لتجلس عليها.

ولكن ماذا بعد؟

كيف يلتقيان؟

إنه لا يعرف شيئا جديدا عنها إلا اسمها.. سمعه وإحدى.. صديقاتها تناديها: «شهيرة».. وسمعه مرة أخرى وصديقة تناديها «شوشت».. وخيل إليه أنه أجمل اسم سمعه في حياته.. اسم لا يطلق على بنات الأرض.. ربما بنات الجنة، أو بنات القمر.

وماذا ، بعد أن عرف اسمها؟.

إنه لا يدري..

فكر أن يكتب نمرة تليفونه على بطاقة من البطاقات التي تحمل اسمه، ثم يدسها في يدها. ولكنه لا يستطيع.. إنه لا يستطيع حتى أن يقترب

منها.. ثم فكر أن يذهب إلى أكشاك التليفون فى النادى، ويدخل فى أحدها ويرفع سماعة التليفون، ويطلب نمرة النادى نفسه.. فتليفون النادى له عدة خطوط.. ثم يطلب من العاملة أن تستدعى له الآنسة شهيرة.. وستأتى شهيرة، وتدخل فى كشك آخر، وترد عليه.. سيتحادثان فى التليفون ولا يفصل بينهما أكثر من نصف متر.. و.. ولكنه تذكر أنه لا يعرف اسمها كاملا، حتى يطلب من عاملة التليفون استدعاءها.. وهى أيضا لا تعرف اسمه.. وربما ألقت السماعة فى وجهه فيتعذب بكرامته المجروحة.. وحتى لو لم تلق السماعة فى وجهه، فإنه لا يدرى ماذا يقول لها؟ إنه لا يعرف ماذا يقول لبنت عند أول لقاء؟ إنه شاب تنقصه تجارب الشبان.. إنه جبان.. إنه عذراء..ولو كان أخوه ممدوح مكانه لعرف كيف يتقدم للفتاة ويربط نفسه بها.. إن أخاه جرىء يفيض بالحياة ويعرف كيف يأخذ ما يريد؟ وتمنى من فرط يأسه أن يأتى ممدوح، ويرى الفتاة، ويحبها، ويربط نفسه بها.. إنه إن لم يستطع أن يحقق أحلامه لنفسه، فليحققها فى أخيه.



واستطرد أحمد وهو فى جلسته فى النادى يستعرض مظاهر حيرته، وعيناه فى الكتاب، وظهره لشهيرة.. ثم خطر له خاطر.. لماذا لا يبتسم لها؟ إنه لم يبتسم لها إلى الآن.. مضى شهر ونصف منذ رآها لأول مرة، ولم يبتسم لها بعد.

وطوى الكتاب فى حركة قوية كأنه يطوى بين صفحاته حيرته، وتردده.. ثم علق بين شفتيه ابتسامة كبيرة.. ثم مسح ابتسامته. وجذب نفسا عميقا من صدره.. وعاد يعلق فوق شفتيه ابتسامة أصغر من الأولى.. ثم قام فجأة من على مقعده وكتابه فى يده.. والتفت إلى شهيرة ووضع وجهه قبالة وجهها وقذف بابتسامته.. ابتسامة بدت كأنه يخرج لها لسانه.. ثم لم ينتظر حتى يرى وقع ابتسامته عليها.. بل إنه لم ير وجهها.. كانت عيناه من فرط اهتزازه وتحامله على نفسه، زائغتين لا تريان شيئا.

ثم سار فى خطوات مرتبكة، وخرج من شرفة النادى.. ووقف يلتقط أنفاسه من الهواء.. ثم مد أصبعه وضغط على الجرس المعلق فى الجدار، والخاص باستدعاء سيارات الأجرة.

ووقف ينتظر وعقله مشلول.. لا يستطيع أن يفكر فيما صنعه.. ولا أن يراجع نفسه.. كل ما كان يحس به أنه يريد أن يهرب.. يريد أن يفر من هذا العالم الذى تعيش فيه شهيرة، وتعيش فيه أحاسيسه وحيرته.. العالم الذى يشعره بمزيد من العجز، ويفتح أمامه متاهات جديدة تزداد فيها نفسه قلقا وتخبطا.

ولم يستطع الانتظار إلى أن تأتى السيارة الأجرة، فسار على قدميه، حتى موقف السيارات ووضع نفسه فى إحداها، وقال للسائق كأنه يتنهد:

– الروضة يا أسطى..

وجرت به السيارة.. ورطب الهواء رأسه الملتهب، وبدأت نفسه تهدأ.. وبدأ يحاول أن يقنع نفسه بأنه لم يرتكب إثما عندما ابتسم لشهيرة، وأن أحدا فى النادى لم يلحظ هذه الابتسامة، وربما هى نفسها لم تلحظها.. وأن أحدا لم يسخر منه عندما قام من على مقعده بهذه الحركة المفاجئة.. إنه لا يزال جادا وقورا.. وكل ما يشعر به من الحرج هو مجرد أحاسيس داخلية تصورها له أوهامه. وليس لها ظل على الناس.. لا أحد يرى أحاسيسه.. لا أحد يرى منه إلا صورة الشاب الجاد الوقور.

وهدأت نفسه أكثر عندما أصبحت السيارة تجرى فى شارع عبدالعزيز آل سعود المحاذى لشاطىء النيل.. إنه يقترب من بيته.. يقترب من عالمه.. يقترب من أمه.. يقترب من الهدوء والسكينة والاستقرار.

وأطل من نافذة السيارة وألقى عينيه على صفحة النيل.. وارتاحت قسمات وجهه أكثر.. وعلت شفتيه ابتسامة ساخرة.. وكأنه يسخر من نفسه ومن أحاسيسه.

وفجأة اتسعت عيناه فى ذعر.

إنها هى..

أخته نبيلة..

وفى يدها كراسة المحاضرات، ويدها الأخرى فى يد شاب لا يعرفه.. يسيران على الرصيف المحاذى لشاطىء النيل، فى خطى بطيئة متلكئة.

وأبعد أحمد وجهه عن نافذة السيارة، وجمع نفسه فى ركن السيارة، مختبئا، كأنه يحتمى من وحش هجم عليه. وحش انطلق فى نفسه!

إنه لا يريدها أن تراه.

وكان يتمنى ألا يراها.

ولكنه رآها.

وليس متأكدا أنها لم تره.

وأحس بصدره يضيق، وأعصابه تتلوى، ودموعه تكاد تنبثق من عينيه.. دموع غيظ وحنق.. دموع رب العائلة الصغير.. الحائر.

وخرجت السيارة من شارع عبد العزيز آل سعود، ودارت حول الميدان، ثم دخلت فى شارع الأخشيد.. وأحمد لا يزال مختبئا فى ركن منها، مبتعدا برأسه عن النافذة.. حتى عندما اضطر أن يخاطب السائق ليدله على الطريق، خاطبه وهو ملتصق بركن السيارة.. وكان اختباؤه بحركة تلقائية.. كان يعلم أنه لم يعد فى الشارع ما يختبىء منه.. ولكنه كان يختبىء من نفسه.. يختبىء من مسئولية جديدة ألقيت على عاتقه.





● نبيلة ●

ووقفت السيارة أمام بيت كبير على الطراز القديم مكون من طابقين، ونزل أحمد، ودون أن يلتفت إلى السائق، مد يده في جيبه ثم ناوله ورقة من ذات الخمسين قرشا، واستدار ليدخل إلى البيت، فصاح السائق وراءه:



- الباقى يا أستاذ.

ودون أن تتغير ملامح وجه أحمد، ودون أن يرفع رأسه، عاد إلى السائق ومد له يده، وأخذ منه باقى النقود، ودسها فى جيبه دون أن ينظر فيها، وقال فى صوت أجش:

- متشكر ..

ونظر إليه السائق فى دهشة، وقال فى صوت هادىء كأنه يشفق عليه:

- مع السلامه يا أستاذ..

واستدار أحمد، وخطا نحو البيت، ودفع الباب الحديدى الكبير بيده، وهرع عبدالله البواب من داخل فناء البيت ليستقبله، ولكن أحمد لم يلتفت إليه.. لم يحس به.. وأخذ يصعد السلم الرخامى العريض، ورأسه ملقى على صدره، وأمام عينيه أطياف من خياله، لا يستطيع أن يتبين منها إلا صورة أخته نبيلة وهى تسير على شاطىء النيل ويدها فى يد شاب لا يعرفه.

ودفع الباب الخشبى المطرز بألواح الزجاج وأسياخ الحديد والذى يؤدى إلى داخل البيت.. إن الأبواب لا تغلق فى هذا البيت أثناء النهار.. وليس بين أفراد العائلة من يحمل مفتاحا فى جيبه، إنما تغلق الأبواب بالليل فقط، والمفتاح فى جيب عبدالله البواب، وهو الذى يفتح للقادمين

خلال الليل، سواء باب الحديقة، أم باب البيت.

ودخل أحمد.. واستقبله البهو الكبير الخافت الضوء، وقد غطيت أرضه بقطع من السجاد الكبير القديم.. وانتثرت فيه قطع من الأثاث قاتمة اللون، كلها من الطراز القديم. إن كل شىء فى البيت قديم.. عريق.. أثر من آثار ماض يزخر بالثراء.. وليس فيه جديد إلا ثلاجة كهربائية موضوعة فى غرفة المائدة، وجانب منها يبدو فى البهو الخارجى.

وامتلأت أذنا أحمد بصوت نقرات على البيانو تنبعث من حجرة الصالون.. لقد تعود على هذه النقرات.. إن أخته الصغرى تقضى وقتها كله جالسة إلى البيانو تراجع دروس الموسيقى.. ولم يكن لهذه النقرات صدى فى رأسه أكثر من صدى أصوات السيارات وعجلات الترام التى تملأ أذنيه وهو جالس فى مكتبه بإدارة المعاشات.. أصوات تملأ أذنيه دون أن يسمعها.. ولكنه الآن يحس بهذه النقرات التى تدقها أخته على أصابع البيانو، كأنها مسامير تدقها فى رأسه.. مسامير تفتح جروحا فى رأسه، تسيل منها حيرته وتردده.. إنه يريد هدوءا.. يريد أن يخلو بهذه الخيوط المرتبكة المتداخلة التى تملأ صدره، لعله يستطيع أن يصل من بينها إلى طرف الخيط.. إلى قرار يتخذه ويصمم عليه.

وأسرع الخطى نحو غرفته.. ثم توقف قبل أن يصل إليها، كأنه تذكر شيئا.. واستدار عائدا إلى غرفة الصالون مارا بالبهو.. وفتح بابها فجأة، كأنه يتعمد أن يضبط أخته متلبسة.. يضبطها ومعها رجل.

وتوقفت النقرات على البيانو، والتفتت أخته، على صوت الباب الذى فتح فجأة، ثم علت شفتيها ابتسامة كبيرة، وصاحت فى مرح:

– خضتنى يا آبيه..

ثم استطردت فى كلمات سريعة ضاحكة كأنها لن تنتهى أبدا من كلامها:

– النهاردة الأستاذ ادانى سوناتا لبيتهوفن.. ووعدنى أن يخلينى ألعبها فى حفلة آخر السنة.. دى صعبه قوى.. إنما على مين.. اسمع..

واستدارت نحو أصابع البيانو، وبدأت تنقر عليها.. ونظر إليها أحمد نظرة فيها كثير من الحياء، كأنه يعتذر لها عن الخاطر الذى راوده.. ثم

اقترب منها، ووضع كفه على كتفها، وقال وهو يحاول أن يغتصب ابتسامة من بين شفتيه:

– خللى صوت البيانو واطى يا ليلى، أحسن بيتهوفن يسمعك، يزعل منك..

وقالت ليلى وهى مستمرة فى العزف:

ما تخافش .. ده كان أطرش..

وظل أحمد واقفا خلفها برهة.. ينظر إلى شعرها الأصفر المشوب بالاحمرار، وقد تدلى فى ضفيرة طويلة كأنها شعاع من الشمس ساعة الأصيل وإلى بشرتها البيضاء المشربة بلون الحناء وأصابعها الطرية التى تقفز كالعصافير الصغيرة فوق البيانو.. وعادت خواطره تراوده.. هل يمكن أن يكون لها هى الأخرى شاب تحبه؟ شاب تسير معه على شاطىء النيل ويدها فى يده، كما تفعل أختها نبيلة.. لا.. إنها صغيرة.. إنها لا تزال فى السابعة عشرة.. أصغر من الحب.. وأبرأ من الحياة.

ووجد نفسه ينحنى فوق رأسها، ويقبلها قبلة سريعة خاطفة كهزة رمش.. وتوقفت ليلى عن العزف مرة ثانية، ورفعت إليه وجهها وفى عينيها دهشة.. إنه لم يتعود تقبيلها، ولم تتعود منه كل هذا الحنان.

ولم يتوقف أحمد ليرد على دهشتها.. استدار لها وهم بالخروج من الغرفة.. فقامت ليلى من على مقعد البيانو، وجرت وراءه، صائحة:

– آبيه أحمد..

ووقف أحمد.. ونظرت إليه ليلى فى جزع، كأنها تبحث فى وجهه عن شىء يقلقها، ثم ارتمت فوق صدره، واحتضنته، ثم ابتعدت عنه بسرعة، وقالت وهى تحاول أن تعود إلى مرحها لتخفى جزعها:

– انت النهارده فيه حاجه مزعلاك..

وقال أحمد كأنه يدافع عن نفسه بإخفاء سره:

– أبدا .. هو أنا لما أبوسك يبقى لازم أكون زعلان..

وقالت ليلى، وهى تشب فى وقفتها على أطراف أصابعها:

– تحب أضرب لك الجندول؟

وقال أحمد وهو يبتسم:

– بعدين.. بعد الأكل، علشان أهضم..

وخرج من غرفة الصالون، وسار في الممر الذى يؤدى إلى غرفته.. ولم يحاول أن يبحث عن أمه.. إن من عادته أن يذهب إليها كلما عاد إلى البيت ويقبل يدها.. ولكنه لم يستطع أن يواجهها.. كان يخاف أن تقرأ على وجهه ما يدور فى رأسه.. فدخل إلى غرفته مباشرة، وأغلق الباب وراءه، ثم ألقى نفسه على سريره وهو بكامل ملابسه، ووضع ذراعيه تحت رأسه، وراح يفكر.

وحاول أن يكون تفكيره منطقيا.. حاول أن يسلسل أفكاره فى شريط واحد حتى لا يتوه فيها أو يتوه عنها.. وبدأ من أول الشريط.

لقد رأى أخته نبيلة تسير على شاطىء النيل مع شاب لا يعرفه.. ولا يمكن أن يكون سيرها معه مجرد زمالة.. لقد كانا يسيران فى منطقة بعيدة عن الجامعة، وكانت يدها فى يده، وكانت خطواتهما بطيئة متأرجحة، كأنهما لا يتحركان، كأنهما فى زورق يتنهد مع نسيم هادىء فوق صفحة الماء.

ثم ماذا؟

إنه مندهش.. لا.. إنه ليس مندهشا فحسب، إنه مجروح، كأن أحدا سلب منه حقا، كأن أحدا أهانه، واعتدى على كرامته.

ولكن لماذا هو مجروح؟

إنها فتاة وكانت تسير مع فتى.. وهو يستطيع أن يتصور كل الفتيات والفتيان فى حب.. كل منهن تسير مع فتى على شاطىء النيل ويدها فى يده.. وقد تصور نفسه هو أيضا يسير مع شهيرة على شاطىء النيل، وفى ملاعب نادى الجزيرة، بل تصور نفسه يقبلها.. فلماذا لا يعتبر أخته واحدة من البنات؟ لماذا لم يدر بخلده أبدا أن واحدة من أخواته البنات يمكن أن تحب، ويمكن أن تختلس مع حبيبها فرصا يسيران فيها على شاطىء النيل.. لماذا يصر كل أخ على تجاهل هذه الحقيقة؟ لماذا يصر على أن ما يأخذه من شقيقات الناس، لا يمكن أن يأخذه أحد من شقيقاته؟ لماذا يمنح كل البنات حق الحب، وحق الشباب، وحق الجنس، ويحرم أخواته من هذا الحق ؟

الواقع أن أخته واحدة كبقية البنات.. ولكنه عاش طوال حياته يتجاهل هذا الواقع.. كل الأخوة يتجاهلونه.. يتجاهلونه ويخفونه تحت ركام التقاليد الموروثة، والكرامة الشرقية الكاذبة.

ولكنه الآن لا يستطيع تجاهل هذا الواقع.. لقد قفز الواقع فوق الركام وفوق التقاليد الوهمية التى يلف فيها كل أخ أخته.. لا ليحمى أخته، بل ليحمى نفسه، ليحمى أحاسيسه الشرقية البدائية من أن تجرح.

إنه لا يستطيع الآن تجاهل الواقع، لأنه رآه.. رآه بعينيه.. وقد كان يفضل ألا يراه، حتى لا يحمل مسئوليته، وحتى يظل محتفظا بهدوء نفسه.. يفضل ألا يراه حتى لو عاش طوال عمره فى الأسطورة التى يعيش فيها كل أخ.. أسطورة أن أخوته البنات لسن ككل البنات!

ورفع عينيه إلى سقف الغرفة.. وعاد خياله يجرى وراء صورة أخته وهى تسير على شاطىء النيل ويدها فى يد هذا الشاب.. ثم هز رأسه كأنه يتعجب.. أن أخته نبيلة هى أهدأ أخوته البنات الثلاث، وأكثرهن اتزانا، وأقواهن شخصية.. رغم أنها ليست كبراهن.. وقد كان دائماً معجبا بشخصيتها.. كان يضعها بعد أمه مباشرة.. وكان يحس فيها بقوة تجعله يتمنى أن يكاشفها بحيرته.. وكان يستريح لوجهها الهادىء والطريقة المحترمة التى تصفف بها شعرها، وتجعلها تبدو أكبر من سنها، وابتسامتها المتزنة التى تعطى معانى كبيرة فى مساحة ضيقة، كأنها ابتسامة فيلسوف يضع الأفكار الدسمة فى كلمات قليلة.. وكان معجبا بإقبالها على الدراسة واستزادتها منها.. و.. إنها آخر واحدة بين شقيقاته، كان ينتظر أن يراها مع شاب فى مغامرة عاطفية.

المهم .. ماذا يفعل؟

هل يسكت.. ولكنه لا يستطيع أن يواجه أخته بالسكوت.. إنه لن يستطيع أن يرفع عينيه إليها، وهو ساكت.. ثم أن السكوت قد يكون محتملا إذا كان قد رآها دون أن تراه، ولكنه ليس متأكدا أنها لم تره. لقد لمح عينيها تصطدمان بوجهه وهو يطل عليها من نافذة السيارة الأجرة.. لاشك أنها رأته.. ولاشك أنها تنتظر منه أن يبدأها بالحديث.. أن يحاسبها.. أن يقول لها رأيه فيها..

ماذا يقول لها؟
ماذا كان يمكن أن يقول لها أبوه لو كان حيا ورآها مع هذا الشاب؟
ووجد أحمد نفسه يحاول أن يتقمص شخصية أبيه.. إنه يعرف أباه جيدا.. كان أبوه هو أول شخصية وضعها تحت ملاحظته لدراستها.. وهو يعرف كيف كان يمكن أن يتصرف فى مثل هذا الموقف.. كان يملأ البيت صراخا.. وكان يضرب نبيلة، ويخرجها من الجامعة، ويحبسها فى البيت، ثم يخاصم زوجته، وتنقضى الشهور وهو يثير الموضوع بين آن وآخر، ويوجه لومه وتقريعه إلى الأم، ويتهمها بالتقصير فى تربية بناتها.
وقد كان أحمد يحب أباه، ولكنه لم يكن معجبا به.. كان أبوه من أسرة ريفية متوسطة الحال، نزح إلى القاهرة، والتحق بمدرسة الألسن، ثم عين فى وزارة العدل وسار فى سلك النيابة، حتى أصبح قاضيا.. واستطاع خلال ذلك أن يتصل بالأسر المصرية الكبيرة، وأن يربط نفسه بمجتمعها.. وعن هذا الطريق استطاع أن يتزوج واحدة من بنات هذه الأسر.. من أسرة راجى باشا.. وكانت أيامها من أغنى الأسر المنحدرة من الأصل التركي، وبين أفرادها وزراء وموظفون كبار.. وكانت زوجته طيبة أصيلة، تربت لتكون للزوج الذى يختاره لها أهلها.. وكان يمكن أن يسعد بها، لولا أنه ظل طوال حياته يعانى من عقدة نقص تجاهها.. كان يشعر بأنها أعلى مستوى منه وأعرق أصلا وأغنى ثروة.. ورغم تماديها فى طاعته وفى محاولة ارضائه، كان احساسه بالنقص يشقيه دائما ويشقيها معه.. وقد ارتقى فى مناصب القضاء حتى أصبح مستشارا.. ولكنه رغم ذلك لم يتخلص من احساسه بالنقص، فبدأ يتصل برجال السياسة، ويدخل نفسه فى مجتمعاتهم، ويقيم لهم ولائم سخية فى بيته ويبدد ثروته وثروة زوجته عليهم.. ثم انضم إلى حزب الأحرار الدستوريين ، بعد أن طاف بكل الأحزاب، ليعرف أيها يستطيع أن يحمله إلى الوزارة.. وكان مقدرا أن يصبح وزيرا فعلا فى أول وزارة يتولاها الأحرار الدستوريون بعد أن انضم إليهم لولا أن اراحه الموت من احساسه بالنقص..
ويذكر أحمد أن والده لم يكف أبدا عن التشهير بأسرة زوجته، والسخرية من أصلها التركى، حتى أمام أولاده.. وكان ينسب كل أخطاء

زوجته - وكلها أخطاء صغيرة، أو أخطاء وهمية - إلى أصلها التركي.. ومن كثرة ما سمع أحمد من هذا التشهير وهذه السخرية، نشأ وهو يتخذ دائما جانب أمه.. لم يكن يفهم تماما سر المشاحنات التى تدور بينها وبين أبيه، ولكنه كان يحس أنها الجانب المعتدى عليه.. وكان معجبا بهدوئها واحترامها لنفسها، وعدم الرد على أبيه بمثل تشهيره وسخريته.. وكان اعجابه ينقلب إلى دهشة عندما تجلس إليه أمه، وتحاول أن تقنعه بأن أباه رجل عظيم، وتحاول أن تزرع فى قلبه بذور حبه لأبيه، واحترامه له..

وقد استطاعت أمه أن تجعله يحب أباه.. أحبه لأنها ارادت له أن يحبه.. ولكن أمه لم تستطع أن تجعله يحترم أباه أو يعجب به.. حتى بعد أن توفى لم يستطع أحمد أن يكون معجبا بأبيه.. وكان كلما كبر، وازداد وعيا، وتعمق فى دراسة شخصية أبيه، اكتشف فيها الانتهازية، والقسوة وعقدة النقص.

واستطرد أحمد يحاول أن يجمع فى خياله ذكرى الأيام التى سبقت وفاة والده.. لقد كانوا يقيمون أيامها فى البيت كله.. كان الدور الأول مخصصا لاستقبال الضيوف من الوزراء والباشوات ورجال القضاء.. وكانت العائلة تقيم فى الدور العلوي.. وكان أحمد لا يدخل الدور الأول أبدا، وكلما مر به شعر برهبة، تكاد تكون خوفا.. كان يخيل إليه أن غرف هذا الدور مليئة بأشباح لرجال عجائز، ذوى شوارب ولحى بيضاء.. وطرابيش طويلة.. طويلة جدا.. وعيون قاسية.. وأصوات محشرجة كأصوات العفاريت.. وضحكات مجنونة صارخة.. وكان كلما مر بهذا الدور وهو فى طريقه إلى الدور العلوي، أخذ يجرى فوق السلالم ويقفزها قفزا هربا من أشباح العجائز.. وحتى بعد أن كبر وازداد وعيا ظلت فيه عادة الجرى فوق السلالم وقفزها.. ثم توفى والده واكتشفت أمه أنه ترك وراءه ديونا ضخمة، فتولت سدادها حفظا لسمعة العائلة ، واضطرت أن تبيع الأرض التى ورثتها من عائلتها، ولم يبق لها إلا العمارة.. وهذا البيت الذى يقيمون فيه. وزيادة فى الاقتصاد انتقلت مع أولادها إلى الدور الأول، وأجرت الدور العلوى بايجار لم يزد على اثنى عشر جنيها فى الشهر.. وقد ظل أحمد بعد أن انتقلوا إلى الدور الأول، يعانى الرهبة والخوف.. كان ينام

خائفا، ويستيقظ فى الليل مذعورا على أشباح العجائز ذوى الشوارب واللحى القاسية.. وقد صاحبته هذه الرهبة وهذا الخوف سنوات طويلة، حتى غطست فى عقله الباطن..

وتململ أحمد وهو راقد على السرير كأنه يحاول أن يطرد من رأسه ذكرى أبيه، وأيام أبيه.

ثم بدأ يحاول أن يتقمص شخصية أخرى.. شخصية خاله.

لو كان خاله فى مثل موقفه، ماذا كان يفعل بنبيلة؟

إنه يعرف ماذا يفعل خاله فى مثل هذا الموقف.. سيواجهه جادا هادئا.. وسيختلى بنبيلة فى غرفة المكتب، ويحادثها طويلا، دون أن يثيرها، ودون أن يترك لها فرصة الرد، ثم سيتركها ويتفق مع الأم على تزويجها بسرعة.. ولأول رجل يطرق الباب.. تماما كما حل مشكلته هو عندما كان يحاول أن يجد عملا يعمله بعد أن انتهى من دراسته الجامعية.. لقد عينه فى أقرب وظيفة إليه.. فى إدارة المعاشات.

وقفز أحمد من فوق السرير، وأخذ يروح ويغدو فى حجرته.. وهو يدق الأرض بقدميه دقات قوية، كأنه يحاول أن يقتل شيئا يسعى بين قدميه.. إنه لا يستطيع أن يكون كأبيه، ولا يستطيع أن يكون كخاله.. إن فى عقله جانبا متمردا.. جانب يؤمن بأن أخته كبقية البنات، ومن حقها أن تحب، ومن حقها أن تختار من تحبه، وأن تسير معه على شاطىء النيل ويدها فى يده.. ورغم ذلك فعقلية أبيه، وعقلية خاله، تختلطان بهذا الجانب من عقله.. كأن فى رأسه ثلاثة عقول، لا يدرى أيها يستعين به فى أتخاذ قراره.. كأن فى نفسه ثلاث شخصيات لا يدرى أيها يتركها تتصرف.



وسمع نقراً على الباب.

ثم فتح الباب قبل أن يجيب، وأطل منه وجه أخيه ممدوح.. وجه باسم نحيل.. حاجبان كثيفان يلتقيان فوق عينين جريئتين ينطلق منهما بريق نشط وأنف مستقيم.. وشفتان رفيعتان، وخصلة من شعره فى لون قشرة أبو فروة، تتدلى فوق جبينه.

وابتسم أحمد.. إنه لا يتمالك نفسه عن الابتسام كلما رأى أخاه.. إن

وجهه وشخصيته المرحة تجتذب ابتسامتك رغما عنك.

ودخل ممدوح بقامته الطويلة الرفيعة، مرتديا بنطلونا وقميصا أبيض فوق بلوفر من الصوف ذى أكمام طويلة، وتحت إبطه حافظة كبيرة من الورق مما يحمله باعة الصحف.. وقال وهو يبتسم لأخيه كأنه يلقى عليه شباكا من شخصيته الجذابة المرحة.

ـ ازيك يا أخويا.

ونظر أحمد إلى حافظة باعة الصحف فى دهشة، وقال كأنه ينهر أخاه :

ـ إيه اللى إنت شايله ده؟

وقال ممدوح وهو يفرد ابتسامته فوق شفتيه :

ـ جرايد ومجلات..

ثم جذب احدى الصحف من داخل الحافظة، ورفعها فى الهواء، وأخذ يدور داخل الغرفة وهو يصيح مقلدا باعة الصحف :

ـ أهرام .. أخبار.. روزا.

وبذل أحمد مجهودا ليخفى ابتسامته، ويكسو وجهه بقناع من الوقار، وقال فى صوت حاد مرتفع يعلو على صياح أخيه :

ـ إنت اشتغلت بياع جرايد ولا إيه؟

وتوقف ممدوح عن الصياح، وقال وهو يعيد الصحيفة داخل الحافظة :

ـ تقريبا.

وقال أحمد وهو ينظر إلى أخيه فى تمعن :

ـ أظن لو قريت الجرايد دى تكسب أكتر!

وقال ممدوح وهو لا يزال يبتسم :

ـ بالعكس.. أنا قرأتهم ما كسبتش حاجة.. ولما فكرت أبيعهم ابتديت أكسب كتير.. تعرف أقدر اكسب كام فى اليوم من بيع الجرايد؟

ولم يرد أحمد، ظل ينظر إلى أخيه كأنه يتهمه بالجنون.. واستطرد ممدوح وصوته يفيض حماسا، كأنه يتحدث عن مشروع وطنى كبير :

ـ أقدر أكسب جنيه فى اليوم.. جنيه بحاله.. الجرنال باخده من المتعهد بسبعة مليم وأبيعه بعشرة والمجلة أخدها بخمسة وعشرين مليم، وأبيعها بتلاتين، وقصة لا أنام، المتعهد يبيعها بخمسة وتلاتين قرش. وأنا أبيعها

بخمسين.. ولو وصلت لغاية شركة التوزيع أقدر اشترى ارخص واكسب اكثر.. اقدر أكسب جنيه فى اليوم.. يعنى تلاتين جنيه فى الشهر.. يعنى ماهية موظف فى الدرجة الخامسة.. وقال أحمد وهو لا يزال ينظر إلى أخيه كأنه يتهمه بالجنون :

- إيه الكلام اللى بتقوله ده..

وقال ممدوح وهو لا يزال مستطردا فى حماسه :

- ده كلام جد.. امبارح كنت قاعد فى بوفيه الجامعة، وباقول للطلبة إن الواحد لو اشتغل بياع جرايد يكسب أكثر من المحامى اللى تحت التمرين.. قعدوا يتريقوا علىّ، ويقولوا إن ما فيش طالب جامعة يرضى يشتغل بياع جرايد.. فتحديتهم.. وخرجت من الجامعة وقعدت أدور لغاية ما عرفت المعلم اللى بيبيع الجرايد فى الجيزة.. وعرفت الأسعار والنهاردة الصبح بدرى رحت اشتريت من المعلم شوية جرايد ومجلات بخمسين قرش.. ودخلت الجامعة ووقفت على سلم كلية الحقوق.. وابتديت أقول فى صوت واطي، وفى منتهى الجد.. أهرام، أخبار، روزا، ومافتش نصف ساعة إلا وبعت كل اللى معايا.. ما فضلش معايا إلا نسخة واحدة.. ولولا أن أصحابى اتلموا علىّ وقعدوا يناقشونى كنت بعت النسخة دى كمان.. وتعرف الخمسين قرش بقوا كام. بقوا اتنين وستين قرش.. يعنى.

وصاح أحمد يقاطعه غاضبا :

- إنت بتهزأ نفسك.. إنت مسخرة الجامعة.. الطلبة ما كانوش بيشتروا منك كانوا بيدفعوا لك القرش علشان يتفرجوا عليك.. يتفرجوا على السيرك الجديد.. على الاراجوز.

وسكت أحمد.. وأخذ يبحث فى أعماقه عن غضبه فلم يجد له أثرا.. إنه فى الواقع ليس غاضبا من أخيه.. إنه كان يتتبع مشروعه بشغف واعجاب، ورغم ذلك فقد ظل محتفظا بمظهر الغضب.

وقال ممدوح وفى عينيه دهشة كأنه لا يصدق غضب أخيه :

- باهزأ نفسى ليه.. هو بيع الجرايد عيب.. حرام.. سرقة؟!

وقال أحمد :

- الجرايد لها ناس مخصوص تبيعها.. ناس مابيدخلوش الجامعة!

وقال ممدوح وهو يلقى بحافظة الصحف فوق سرير أخيه :

- أنت بتتكلم زى الطلبة اللى كانوا بيناقشونى امبارح.. إنما أنا مش مقتنع أن بيع الجرايد عيب.. ومش مقتنع إن اللى يبيع الجرايد لازم يلبس جلابية.. دى شغلة شريفة وبتجيب فلوس.. يبقى خلاص.

ونظر أحمد فى وجه أخيه كأنه يبحث عن حجة أخرى يواجهه بها، ثم قال :

- لو كان الكلام اللى بتقوله صحيح، كانت الناس كلها باعت جرايد..

وقال ممدوح ساخرا :

- ما هى الناس كلها زيك كده.. اللى يطلع من الجامعة لازم يلبس بدلة وكرافتة ويقعد على مكتب.

وعاد أحمد ينظر فى وجه شقيقه، ثم أرخى عينيه، وأدار له ظهره، وقال وهو يتعمد أن يبدو كأنه لا يبالى :

- خليك إنت تلعب لغاية ما تسقط.

وخطا ممدوح حتى وقف فى مواجهة أخيه، وقال فى لهجة تبدو منها رنة تودد :

- ما تخافش.

ثم رفع يده اليمنى فى الهواء، وقال بلهجة ضاحكة :

- أقسم بالله العظيم أن أنجح فى امتحان السنة الثانية بكلية الحقوق.

ثم خفض يده، وقال :

- المهم.. أنا محتاج لك.

ورفع أحمد عينيه.. إنه يعرف هذه الرنة التى تبدو فى لهجة ممدوح.. إنها رنة لا تبدو إلا كلما أراد منه شيئا. وهو عادة لا يريد إلا نقودا.. وقال فى برود :

- خير.

وقال ممدوح وابتسامته الحلوة تكاد تنزع قناع الوقار الذى يحتفظ به أخوه :

- المشروع محتاج لرأسمال.. اتنين جنيه بس.. حارجعهم لك بعد يومين.

وقال أحمد فى حزم مفتعل :
- ماعنديش.
وقال ممدوح :
- جيب أخويا أحمد عمره ما يخلا.. زى جيب السبع.
وقال أحمد فى حدة :
قلت لك ما عنديش.
وقال ممدوح :
- دور كده فى جيب الجاكتة اللى على الشمال، يمكن تلاقى وقال أحمد وهو يتحاشى النظر إلى أخيه، ليقاوم ضعفه أمام إلحاحه :
- مافيش.. تسمح تقول لى أنت بتودى مصروفك فين.. احنا لسة عشرة فى الشهر.
وقال ممدوح ضاحكا :
- تعيش أنت.. أمال أنا عايز أبيع جرايد ليه، علشان مكسبها باليوم، مش بالشهر.. يعنى عمر الواحد مايفلس.
ومد أحمد يده فى جيب سترته الشمال، وأخرج محفظته، ثم نزع من المحفظة ورقة من ذات الجنيه، وأعطاها لممدوح قائلا :
- مافيش إلا ده.
وأطل ممدوح داخل المحفظة بعينين ضاحكتين، وقال :
- كمان واحد..
وطوى أحمد المحفظة، وقال وهو يعيدها إلى جيبه :
- ولا مليم.
وقال ممدوح فى عتاب :
- يا سلام يا أحمد.. يعنى حتضطرنى أروح أدوش ماما، علشان جنيه.. خللى ماما للحاجات الكبيرة.
وقال أحمد فى حزم، كأنه فى عمر خاله :
- أعرف شغلك.. وأحب أقول لك إنى مش موافق على حكاية الجرايد دى.. حتى لو كانت لعب.. إنت خلاص بقيت راجل.
وقال ممدوح ضاحكا وهو يسحب حافظة الجرايد ويضعها تحت إبطه، ويهم بالخروج من الغرفة :

ـ يعنى مش أحسن من السلف.

وخرج ممدوح.

ونظر أحمد وراءه بعينين ملؤهما الحب والاعجاب، والدهشة.. إنه ليس غاضبا منه.. وربما كان فى أعماقه موافقا على مشروعه.. مشروع الاشتغال ببيع الصحف.. حتى لو كان ممدوح غير جاد فى هذا المشروع، فهو مشروع معقول من ناحية المنطق المجرد.. إن مهنة بيع الجرايد مهنة شريفة مربحة.. وقد يزيد ربحها على مرتبه الذى يتقاضاه من إدارة المعاشات.. ولكن هل يصل هذا الربح إلى ثلاثين جنيها فى الشهر؟!

وبدأ أحمد يخلع سترته، وهو يحسب فى خياله أرباح بائع الصحف.. إنه ليس مضطرا إلى ارتداء جلباب كى يبيع الصحف، سيبيعها وهو مرتد بنطلونا وقميصا.. ثم بدأ يتصور نفسه وهو يقفز على سلم الترام ينادى الصحف.. ثم وهو يجوب الشوارع.. ثم رأى نفسه بعين خياله يبيع الصحف فى شارع عبدالعزيز آل سعود المحاذى لشاطىء النيل.. وفجأة رأى ـ فى خياله ـ أخته نبيلة تسير ويدها فى يد هذا الشاب الذى لا يعرفه.

وتجهم وجهه. وارتمى على المقعد العريض الموضوع بجانب سريره، دون أن يتم خلع ثيابه.. وفوق قميصه بلوفر مضموم من الأمام بصف من الازرار، لا يرتديه إلى الرجال الكبار.. أكبر من عمره.. وعاد يناقش نفسه.. إنه لم يتخذ بعد قرارا.. لم يحدد بعد كيف يواجه اخته، وماذا يقول لها؟

ودهمته سحب الحيرة من جديد.. واستبدت به حيرته حتى لم يعد يتمنى شيئا إلا أن يفر.. يفر من مواجهة أخته، ويفر من هذا البيت، ومن هذا البلد.. وقام من على مقعده فجأة، كأنه يهم فعلا بالفرار.. ووقف أمام المرآة ينظر إلى وجهه وفى عينيه نظرات استخفاف.. ثم رفع قبضته وضرب المرآة ضربة خفيفة، كأنه يضرب وجهه.. يضربه وهو يشفق عليه.

والتفت على صوت نقرات أخرى على الباب.. وبرزت له أمه.. سيدة فى الثانية والأربعين، تبدو أصغر من سنها.. بشرتها البيضاء مشدودة فوق صفحة وجهها، ثم تتكسر قليلا فى تجاعيد خفيفة تحت عينيها.. عينين فاتحتين يختلط فيهما اللون الأخضر باللون الاصفر.. وشعرها الاصفر عقصته خلف رأسها وقد بدأ لونه يغمق.. وقامتها مفرودة.. ممتلئة ولكنها

ليست سمينة.. وقد ارتدت ثوبا أنيقا فى لون البنفسج، ينعكس على لون بشرتها البيضاء فتبدو أكثر بياضا.. وحذاء أسود ذا كعب عال. وفى معصمها ساعة ذهبية غالية.. إنها سيدة يبدو أنها تتعمد الحرص على الاحتفاظ بنفسها.. الاحتفاظ بصحتها، وجمالها، ورشاقتها، واحترامها.

وقالت وبين شفتيها ابتسامة حنان، وفى لهجتها آثار رنة تركية :

- إنت جيت يا أحمد.. يعنى مافتش علىّ؟

واتجه أحمد إليها فى لهفة، وانحنى على يدها يقبلها ويرفعها إلى جبينه، ثم قال ونظرته ترتعش بين عينيه :

- أصل كان معايا شوية كتب، دخلت أحطهم.

ونظرت إليه كأنها لا تصدقه، وقالت وفى عينيها لمسة جزع :

- مالك ؟

وتردد أحمد قليلا ثم قال :

- أبدا.. بس تعبان شوية.

ووضحت لمسة الجزع فى عينى الأم، ومدت يدها وجذبت رأس أحمد إليها ثم لمست جبينه بشفتيها.. وعادت تقول :

- أنت مش سخن. ماعندكش حرارة.. يمكن تعبان من الشغل.

وابتسم أحمد ابتسامة ساخرة فيها كثير من المرارة.. إن أمه لا تعلم أنه لا يعمل شيئا.. لا تعلم أنه عاطل اتخذ مكتبا له فى إدارة المعاشات بوزارة المالية.

وعادت الأم تقول :

- مش نتغدى بأه.. ممدوح وفيفى جم.. مش فاضل إلا نبيلة، زمانها جاية، ولا يمكن عندها دروس وحاتتغدى فى الجامعة..

وحول أحمد عينيه عن عينى أمه، حتى لا تعلم منها ما يعلمه.. حتى لا تعلم أن نبيلة.. ليست فى الجامعة، ولا هى تتلقى العلم.. إنها الآن تسير على شاطىء النيل، ويدها فى يد شاب.

هل يقول لأمه ؟

هل يقول لها كل شيء لينزع العبء عن كتفه ويلقيه على كتفيها.. عبء مواجهة نبيلة، واتخاذ قرار بشأنها.

ونظر أحمد إلى أمه نظرة سريعة.. ولم يقل شيئا.. إنه لا يستطيع أن يقسو عليها إلى هذا الحد.



وبدأت العائلة تلتف حول المائدة.

جلست الأم فى الصدر على مقعد بمسندين.. وجلس أحمد فى المقعد الذى يواجهها.. مقعد آخر بمسندين.. وقد كان هذا المقعد مخصصا للأب، ثم لما توفى ظل مكانه شاغرا أعواما طويلة، كان أحمد خلالها يجلس على يمين أمه كما تعود منذ صغره.. إلى أن طلبت منه أمه يوما أن يجلس فى مكان والده.. المكان الشاغر.. وقد تضايق يومها.. أحس بأنه خرج من جنة الحنان.. أحس بأنه كبر.. كبر جدا حتى أصبح فى عمر والده.. وأحس أنه لم يعد من حقه أن يضحك، ولا أن يلهو، ولا ان يلقى بنفسه فى أحضان أمه.

وجاءت ليلى وجلست على يسار أمها.

ودخل ممدوح وطاف حول المائدة، وشد ضفيرة اخته المدلاة خلف ظهرها، فنظرت إليه ، وقالت فى حدة تضيع فى ابتسامتها :

ـ بايخ.. سخيف.

ولم يرد عليها ممدوح.. مر بوالدته وقبلها فوق رأسها ثم جلس على يمينها.

وجاءت فيفى.. اكبر البنات.. إنها اقل من أمها وأختها اعتناء بثيابها، ومظهرها.. وأقل منها جمالا.. لقد أخذت من أبيها كل شىء.. أخذت لونه الأسمر، وعينيه الضيقتين، وشعره الأسود الذى يميل إلى الخشونة، وأسنانه البارزة بروزا خفيفا، وأنفا أصغر مما يتناسب مع مساحة وجهها.. إنها ليست قبيحة، ولكنها ليست جميلة.. هذا النوع من الوجوه الذى لا يهم الناس أن يطيلوا النظر إليه، ولكنهم لو نظروا إليه لما نفروا منه.

وجلست فيفى على يمين أحمد.. وأخذت تقلب فى أدوات المائدة، ثم رفعت الشوكة أمام عينيها، ودققت فيها النظر، ثم صاحت تنادى السفرجى:

ـ محمد.. محمد.. خد غيّر لي الشوكة دي.. ايه ده، إنتم ما بتغسلوش الشوك والسكاكين!

ولم يلتفت إليه أحد من أفراد العائلة.. كأنهم جميعا قد تعودوا على هذه الصيحة منها.. وجاء محمد السفرجي واخذ الشوكة من يدها ووضع غيرها على المائدة، دون أن يتكلم، ودون أن ينظر في الشوكة التى أعادتها إليه فيفى.

وبدأت أطباق الطعام تطوف عليهم..

ونظرت الأم إلى أحمد نظرة سريعة، ثم خفضت عينيها، وقالت بعد تردد:

– خالك جاى الليلة يا أحمد.. أنت خارج؟

ورفع أحمد عينيه إليها، ثم عاد ونكسها فى طبقه، وقال:

– مش عارف لسة!

وصاحت فيفى:

– مين اللى قال للطباخ يعمل خرشوف.. أنا مابحبش الخرشوف.. وميت مرة قلت ماتعملوش خرشوف.. هوه ماحدش بيسأل فيه فى البيت ده..

ولم يلتفت إليها أحد من أخوتها، وقالت الأم دون أن يبدو عليها اهتمام:

– معلهش يا حبيبتى.. فيه بسلة جنب اللحمة؟

وسكتت الأم قليلا، ثم عادت تنظر إلى أحمد، وقالت وفى صوتها رعشة خفيفة:

– يظهر إن عبد السلام بيه حاييجى مع خالك..

ورفع أحمد وجهه مرة ثانية، وقد قلب شفتيه امتعاضا، وقال بسرعة كأنه يردد قرارا حاسما اتخذه بينه وبين نفسه:

– أنا خارج.. عندى ميعاد مع جماعة أصحابى..

وقالت الأم وهى ترفع الطعام بالشوكة إلى فمها، دون أن تنظر إليه:

– حاول تيجى بدرى.. علشان تقعد مع خالك شويه..

وقال أحمد دون أن ينظر إليها:

– حاضر..

واستمرت العائلة في تناول الطعام وعندما وضعت سلة الفاكهة فوق المائدة، سمعوا صوت باب البيت يفتح.. وصاحت ليلى في فرح:

– نبيلة جت..

وارتعشت رموش أحمد.. ورفع وجهه ونظر إلى نبيلة وهي داخلة إليهم، ثم أبعد عينيه عنها قبل أن تلتقي بعينيها.

ونظرت إليه نبيلة، نظرة حائرة، كأنها تحاول أن تقرأ سطورا على وجهه.. ثم جلست على يساره، وألقت كراسة المحاضرات تحت قدميها..

وقالت الأم ، وصوتها ليس فيه اتهام، ولا محاسبة:

– اتأخرت ليه يا بلبل؟

وتلعثمت نبيلة قليلا، والتفتت إلى أحمد لفتة سريعة، ثم عادت تنظر إلى أمها، وقالت:

– كان عندنا محاضرة بعد الظهر..

وقالت فيفي:

– وهية كلية الآداب فيها محاضرات، ولا فيها شغل.. دي كلية لعب!

وقال ممدوح:

– إزاي الكلام ده..دي كلية الآداب أتعب كلية.. الواحد لما بيطلب فنجال قهوة في البوفيه بتاعها، بيقعد ساعة على بال ما يجيله..

وضحكت فيفي وليلى والأم.. وابتسمت نبيلة ابتسامة مهزوزة لم تستقر على شفتيها.. وكان أحمد قد بدأ يقشر بأصابعه برتقالة، فتركها.. ونظر إلى أخوته، ثم قام من على مقعده، وهو يبذل جهدا كبيرا حتى يبدو طبيعيا.

وقالت الأم وهي تلاحقه بعينيها:

– مش تستنى لما تخلص البرتقاله بتاعتك..

وقالت ليلى:

ـ تحب أقشرها لك..

وقال أحمد وهو يستدير لهم:

– لأ .. مرسيه.. ماليش نفس.

وخرج أحمد من حجرة الطعام، وعينا نبيلة تتبعانه في جزع.. ودخل إلى غرفة المكتب، وألقى نفسه فوق مقعد عريض من الجلد، وجذب كتابا،

وفتحه، وحاول أن يقرأ فيه، ولكن السطور ارتبكت أمام عينيه.. إنه لا يستطيع أن يقرأ.. وهو يعلم أنه لن يستطيع أن يقرأ.. ولكنه ظل مركزا عينيه فوق الصفحات.. وفى رأسه دوى، وصدره ضيق، وأعصابه مشدودة.. وهو يحاول أن يهدأ.. إن كل ما يحتاج إليه الآن هو الهدوء.. أو على الأقل أن يبدو هادئا.

ومرت دقائق، ورفع رأسه من فوق الكتاب ليرى نبيلة واقفة أمامه.. ونظر إليها نظرة صامتة، اختلط فيها الألم بالغيظ بالحيرة.. ولم يتكلم.. عاد ونكس رأسه فوق الكتاب.

ولكنها ظلت واقفة أمامه، لا تتحرك.. وظل ينظر إلى قدميها من تحت أهدابه ورأسه منكسة.. ثم عاد ورفع رأسه إليها، وقال وهو يحاول أن يسيطر على أوتار صوته حتى لا يصرخ:

– عايزه إيه؟

وقالت فى هدوء، وبين شفتيها ابتسامة خجلة:

ـ أنا شفتك النهارده..

وضغط على أعصابه حتى بهت وجهه وارتعشت شفتاه، وقال كأنه يعطيها فرصة للكذب عليه:

– شفتينى فين؟

قالت وهى تتودد إليه بابتسامتها الخجلة:

– شفتك وأنت راكب التاكسى وراجع البيت.. وكنت أنا ماشية مع محمود.

وقالت الجملة الأخيرة بسرعة كأنها تتخلص من فائض أنفاسها.

وسكت أحمد، وقد اكتست عيناه بالألم والحيرة، ثم قال بعد برهة فى صوت محشرج كأنه صوت ذبيح، ودون أن ينظر إليها:

– محمود مين؟

قالت فى صوت خافت:

– زميلى فى الكلية.. محمود عبدالفتاح..

واقتربت من المكتب واستندت إليه بيدها كأنها تخاف أن تقع على الأرض.. ثم أخذت تمر بأصبعها على حافة المكتب، وقد أدارت وجهها عن

أخيها.. ثم فجأة التفتت إليه وقالت في حدة كأنها تصرخ:

- وبيحبني..

واتسعت عينا أحمد كأنه تلقى سكينا في قلبه.. وظل ساكتا وأنفاسه تتهدج:

واستطردت نبيلة في صوت خافت كأنها تحادث نفسها:

- وأنا بأحبه.. وحانتجوز بعد ما يتخرج السنة دي؟

وزحفت سحب الضباب فوق عيني أحمد حتى لم يعد يرى شيئا.. هل يقوم ويصفعها؟ هل يصرخ فيها؟ هل يتصرف كما كان يمكن أن يتصرف والده في مثل هذا الموقف، أو كما يمكن أن يتصرف خاله؟ إنه لا يدري.. إن الحيرة قد أشلته حتى لم يعد يستطيع أن يتحرك.. بل لا يستطيع أن يحدد أين يضع ذراعه؟ فوق مسند المقعد، أم فوق ركبتيه، أم يسند بها ذقنه.

ووجد نفسه بعد فترة يقول في صوت متهدج كأنه يستعطف أخته:

- وبتقوليلي الكلام ده ليه دلوقت..

وقالت وهي تنظر إليه ووجهها لا يزال محتقنا:

- علشان كان لازم تعرف بعد ماشفتنا.. ولأني عارفه إنك تقدر تفهمني، وإنك بتثق فيَّ.. ولأني ماعملتش حاجه تزعلك علشان أخبيها عليك..

وسكت أحمد، وقد تكرمش وجهه كأنه يمضغ آلامه، ثم قال في صوت عميق كأنه صدى لمناقشة تدور في نفسه:

- إذا كان بيحبك فأنا ما أقدرش أحكم على الحب ده.. الحب إحساس مايقدرش يقدره ويعرف حقيقته إلا اللي بيحس بيه.. وكمان ماأقدرش أحكم على حبك، يمكن تكوني بتحبيه صحيح، ويمكن حبك يكون مجرد إعجاب.. ولا نزوة.. ولا انفعال.. يمكن إنتم الاتنين تكونوا مخدوعين في عواطفكم، ويمكن تكونوا صادقين.. المهم إني أنا ما أقدرش أحكم على عواطفكم.. وما أقدرش أعرف إذا كان حيتجوزك صحيح، ولا بيضحك عليكي.

ثم انتفض واقفا على قدميه، وقال وقد ارتفع صوته:

- أنا مش ممكن اعترف بالحب ده.. مش ممكن اعترف بحاجه ما أقدرش أتأكد منها.. وبصفتي أخوكي، مش ممكن اعترف بالشاب ده إلا

لما ييجى ويطلب يتجوزك.. ومش عايز أسمع السيرة دى تانى.. مش عايز أشوفك معاه تانى.. مش عايز أشوفك خالص.

وصاحب نبيلة كأنها تهم بالدفاع عن حبيبها:

- ده أنا بأعرفه بقالى سنتين يا أبيه.. و..

ولم يستمع أحمد إلى بقية كلامها، وخرج من الغرفة وهو يدق الأرض بقدميه كالطفل العنيد.. ونبيلة تتبعه بعينين ملؤهما الاشفاق.. ودموع فوق خديها كأنها تحاول أن تغسل بها الجرح الذى فتحته فى قلبه.

ودخل أحمد غرفته وهو يعلم أنه لم يفعل شيئا إلا الهرب.. لقد هرب من المشكلة.. تخلى عن أخته.. لم يبد لها رأيا.. لم يمد لها يدا.. لم يعنها.. ولم ينقذها.. فقط هرب.. لأنه لا يستطيع إلا الهروب.



وكانت الساعة الرابعة والنصف عندما خرج أحمد من غرفته ودخل الحمام، وخلع ثيابه ووقف تحت «الدش».. لقد تعود أن يستحم بالماء البارد صيفا وشتاء.. كان الماء البارد ينعشه وينبه أعصابه.. ولكن الماء فى هذه المرة كان ينزلق فوق جسده دون أن يحس به، كأنه خيوط المطر تنزلق فوق سقف من الصفيح.

وخرج من الحمام، ودخل إلى غرفته وبدأ يلبس ثيابه من جديد.. إنه سيغادر البيت.. لا يدرى إلى أين؟ ربما إلى السينما، وربما ذهب إلى مقهى، وربما سافر.. كل ما يدريه أنه يجب أن يغادر البيت.

وعندما وصل إلى البهو الخارجى لمح أمه تشرف على ترتيب حجرة «الصالون» استعدادا لاستقبال خاله، وعبدالسلام.. وعندما تذكر عبدالسلام، وسع من خطاه كأنه يفر.

وقبل أن يفتح الباب، لمح أخته ليلى آتية وراءه، وقد حملت مجموعة من النوت الموسيقية فى يدها.. وارتدت ثوبا فى لون الورد، وصدرها يبرز من تحته فى تطلع، كأنه يشب نحو السماء.. وقد عقصت شعرها بحيث تركت خصلة منه تتدلى فوق جبينها فى إهمال مثير.. وفوق شفتيها طبقة باهتة من «الروج».

ونظر إليها فى جزع.. إنها جميلة.. إنها أكثر من جميلة، إنها مثيرة..

ولم يكن يدرى أنها يمكن أن تكون جميلة ومثيرة إلى هذا الحد.. لقد كانت طفلة منذ عهد قريب.

وانتظرها إلى أن اقتربت منه، وقال كأنه يخاف عليها من فتنتها:

- رايحة فين؟

وقالت ليلى فى براءة:

- رايحه أتمرن عند طنط عواطف..

ونظر أحمد إليها مليا، كأنه يفكر فى أن يمنعها من الخروج ثم قال:

- ما تتأخريش..

وخرج من البيت..

وتلكأت ليلى قليلا حتى تأكدت من أن أخاها قد وصل إلى الشارع، ثم أطلت فى المرآة الموضوعة بجانب الباب، وساوت خصلة الشعر المدلاة فوق جبينها، وكشفت عن أسنانها، كأنها تجرى تجربة لأرشق وأحلى ابتساماتها.. ثم خرجت وراء أخيها.





● ليـــلى ●

.. ووقفت ليلى أمام باب البيت تبحث بعينيها عن أخيها أحمد، ولما تأكدت أنها لا تراه.. سارت فى امتداد شارع الأخشيد تحت الأشجار الكبيرة التى نزع الشتاء أوراقها وتركها أخشابا جافة كأنها أعمدة من التراب..ثم عادت والتفتت خلفها كأنها لا تزال تخشى أن يراها أخوها أو أن تراه.. ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة، كأنها اكتشفت أن ليس هناك ما تخشاه، حتى لو رآها أخوها.. لقد قالت له إنها ذاهبة إلى «طنط» عواطف.. وهى ذاهبة إليها فعلا، ويستطيع كل أفراد عائلتها أن يصحبوها حتى الباب.

وأسرعت فى مشيتها، وجسدها يهتز مرحا مع خطواتها، وينشر حوله عطر الصبا.. ثم وقفت أمام باب بيت صغير يقع فى نفس الشارع.. بيت كبيتهم، مكون من دورين أيضا، أولهما فوق الأرض مباشرة، وهو أصغر مساحة من بيتهم.. وأقل فخامة..وترددت وهى واقفة أمام الباب، وسقطت ابتسامتها خلف شفتيها، وضرب قلبها بعنف، وأحست ببرودة تسرى فى قدميها.. ثم فردت قامتها ودفعت الباب الخشبى الصغير، وسارت فى الحديقة الصغيرة بخطوات واسعة وهى تحاول أن تتجاهل ضربات قلبها والبرودة التى تسرى فى أطرافها.. ثم صعدت السلم.. وضغطت على الجرس المعلق بجانب الباب.. وهى لا تزال تحاول ألا تحس بشىء، وألا تفكر فى شىء.

وفتح الباب رجل، يرتدى القميص والبنطلون وفوقهما بلوفر من الصوف طويل، أسمر. نحيل الوجه.. وعيناه واسعتان يشع منهما بريق حاد قلق، لا تدرى أهو بريق سوادهما، أم بريق بياضهما.. ونظرة

لا تستقر.. وشفتان مكتنزتان غامقتان.. وقد سقط شعره عن مقدمة رأسه فبدا كأنه قضى عمره فى تفكير عميق أتعب رأسه حتى خلع جذور شعره.

وعلت شفتى الرجل ابتسامة كبيرة.. ابتسامة أقرب إلى نهدة الارتياح.. ثم خطا خطوة واحدة بعيدا عن الباب لتدخل ليلى.. ثم ظل واقفا قبالتها وصدره يكاد يلامس صدرها.

ونظرت ليلى إلى داخل البيت نظرة سريعة، ثم عادت ترفع إليه عينيها فى تساؤل.

وقال فى صوت هامس يجيب عن نظرتها :

- مافيش حد..

وأرخت ليلى عينيها، وقد تضرج وجهها.. ثم شبت على قدميها وقبلته قبلة سريعة فوق خده.

ومد ذراعيه واحتضنها إلى صدره.. إنها أقصر منه قامة، ورأسها فوق كتفه.. وأغمض الاثنان عيونهما.. لم تعد ترى إلا ما فى قلبه، ولم يعد يرى إلا ما فى قلبها.. وارتفعت كفه فوق رأسها واستراحت فوق شعرها.. ثم مال برأسه ووضع خده عى خدها.. وعيونهما لا تزال مغمضة.. كأن أحدهما انتهى فى الآخر.

وانفلتت ليلى من بين ذراعيه فى رفق، وأنفاسها مبهورة.. ونظرت إليه كأنها تبحث عن نفسها فى عينيه.. ثم ابتسمت ابتسامة واسعة كأنها الزغرودة، وقالت وهى ترفع النوتة الموسيقية أمام عينيه :

- بيتهوفن!

وخطت تجتاز الصالة نحو غرفة داخلية، كأنها تسير فى بيتها.. وخطا وراءها قائلا وهو يبتسم :

- حرام عليكى.. شوبان يقدر يفهمنا أكتر !!

•

وكانت الغرفة صغيرة، احتل صندوق البيانو حائطا كاملا منها، ثم لم تتسع الغرفة بعد ذلك لأكثر من مقعدين، ومائدة عليها راديو «وبيك أب» وأمام البيانو مقعد طويل.. و«ريكوردر» على الأرض.. ومجموعة من الاسطوانات، والأشرطة، والمجلات، متناثرة فوق المقعدين، وفوق البيانو، وفوق الراديو، وعلى الأرض.

وفتحت ليلى صندوق البيانو، وجلست أمامه، وفردت النوتة الموسيقية وبدأت تحرك أصابعها فوق مفاتيح الأنغام.. وجلس بجانبها ونظر فى النوتة الموسيقية باهتمام، وقال :

ـ ياه.. سوناتا فردى لونا.. دى عايزة سنة لوحدها..

وقالت ليلى وهى تبتسم :

ـ وماله.. احنا ورانا ايه..

وعاد ينظر إلى النوتة الموسيقية باهتمام، ثم ضغط اصابعه بعضها ببعض كأنه يحاول أن يتخلص من عظامها.. ثم نظر إلى صف مفاتيح البيانو، وقد اشتدت نظرات الاهتمام فى عينيه.. ثم بدأ يعزف.. يحرك أصابعه، وكأنه لم يعد فيه إلا أصابع.. وليلى بجانبه تحاول أن تشاركه العزف على الناحية الأخرى من البيانو.

وفجأة خبط بقوة على مفاتيح البيانو بأصابعه العشرة، فصدر عنها صوت كصوت ترام خرج عن الشريط، وقال وهو يستدير لها بوجهه :

ـ مش ممكن ألعب بيتهوفن وأنتى جنبى.. ده راجل بتاع عواصف وبرق ورعد.. ده فنان عمره ما عرف الحب.

وتوقفت ليلى عن العزف، ونظرت إليه بعينين مبتسمتين :

ـ من فضلك ما تشتمش فيه.. ده صاحبى !

ونظر إليها كأنه لم يسمع كلامها، ثم مد يديه وأمسك بذراعيها، وقال وهو ينظر إليها بكل عينيه :

ـ أنا مش مصدق يا ليلى.

ونظرت إليه فى دهشة، وقالت بصوت يرتعش مع رموش عينيها :

ـ مش مصدق ايه ؟

قال :

ـ مش مصدق كل حاجة.. مش مصدق أنك بتحبينى، ومش مصدق أنى باحبك !

قالت فى عتاب :

- اخص عليك يا فتحى، لسة مش عارف إذا كانت بتحبنى ولا لأ!

قال وهو يطلق ذراعيها من بين كفيه، ويدير عنها عينيه وينظر إلى الأرض :

- عارف.. عارف إنى باحبك، إنما مش مصدق.. فيه حاجات كتير بابقى عارفها إنما مش مصدقها.. لما باعمل لحن وينجح. بابقى عارف أنه ناجح، إنما مش مصدق.. يبقى متهيألى إن الناس بتكذب علىّ، وإنى باكدب على نفسى.. وأنا عارف أنى مشهور إنما مش مصدق، ولما بييجى واحد من الصحفيين ياخد منى حديث، وإلا لما باشوف صورتى فى الجرايد باندهش، وابقى مش مصدق، مع إنى عارف أنى مشهور.. وأكتر من كدة، أنا مش مصدق إنى ملحن ولا موسيقار.. وأفضل أبص لصوابعى وهى بتلعب على البيانو، وأسأل نفسى، يا ترى دى صوابعى أنا.. يتهيألى إنها صوابع واحد تانى.. وأقول لنفسى : بأه أنا زى عبدالوهاب ولا زى شوبان.. مش معقول.. مش ممكن.. مع أنى عارف إنى ملحن وإنى موسيقار.. ويوم ما عرفت إنى باحبك برضه ما صدقتش.. بقيت أقف قدام المرايا وأبص لنفسى وأقول : بأه أنت يا عجوز يا اللى عندك تمانية وتلاتين سنة تحب واحدة عندها سبعتاشر سنة.. عارفة الصاروخ الروسى، مش الواحد بيقرأ عنه وبيشوف صورته إنما مش قادر يصدقه، أهو حبى لك زى الصاروخ الروسى.. باقرأ عنه فى قلبى، وباشوف صورته فى خيالى وفى تصرفاتى.. وبرضه مش مصدق.

ونظرت إليه ليلى فى حنان، وقالت وهى تمد يدها وتضعها فوق يده :

- إنما أنا مصدقة.

قال وهو ينظر إليها والشعاع القلق ينطلق من عينيه وينسكب على وجهها :

مصدقه إيه ؟

قالت فى صوت كالنغم :

- مصدقه أنك بتحبنى.

قال فى حدة :

ـ وأنا أصدق ازاى.. وإذا صدقت حبى، حاصدق حبك ازاى !

قالت فى عتاب رقيق :

ـ بعد ده كله مش مصدق يا فتحى.

قال وهو يقوم من جانبها وينتصب فى وسط الغرفة :

ـ بصى لى.. بصى لى كويس.. بتحبى فىّ ايه.. بتحبينى على إيه؟!

قالت كأنها تدافع عن نفسها :

ـ أنا ما حبتكش علشان شفتك.. أنا حبيتك علشان عرفتك.

ونظر إليها من تحت حاجبين معقدين، كأنه يحل فيها مشكلة عويصة.. ثم القى نفسه على مقعد بعيد، وألقى رأسه فوق كفه، والقى نظراته فوق حذائه، كأنه يعترف بحيرته معها ومع نفسه.

وقامت ووقفت أمامه، وهى لا تزال تنظر إليه بعينين ينطلق منهما الحنان، وقالت بصوت خافت :

ـ فتحى.

ورفع رأسه إليها وفى عينيه نظرات حائرة غائمة.. ثم بدأت نظراته تستريح فوق وجهها.. كأن الطفل الذى يعربد فى عينيه قد استراح على صدر أمه.. ثم مد يده وجذبها إليه فى رفق.. وأجلسها فوق ركبتيه.. وابتسمت ابتسامة كبيرة انسابت من بين شفتيه، كأنه شعاع من الشمس انساب من بين الضباب.

وابتسمت لابتسامته، وألقت صدرها على صدره، وهى جالسة على ركبتيه.. ومدت يدها واحتضنت أصابعه بأصابعها.. ودفنت رأسها فى طيات عنقه كأنها تختبىء من الشمس.

وامتدت أصابعه تعبث بضفيرتها.. بالشعاع الذى ينسدل فوق ظهرها.. ثم جذب الضفيرة جذبة خفيفة، فارتفع وجهها إليه. وعيناها مغمضتان.. وأغمض عينيه هو الآخر.. وبحثا عن الشفاه فى الظلام، على ضوء قلبيهما.

وطالت القبلة.

وأبعدت رأسها عنه وأنفاسها مبهورة.. وبريق عينيها لا يزال يعانق بريق عينيه.. ثم قامت من فوق ركبتيه، وقالت فى مرح :

ـ نسينا بيتهوفن.

واستدارت له متجهة إلى البيانو.. ورفع ذراعه وبدأ يمسح آثار قبلتها من فوق شفتيه بظهر يده.. والتفتت إليه فجأة لتقول شيئا، ورأت يده وهو لا يزال يمسح بها آثار القبلة.. فلم تقل شيئا.. لم تتكلم.. أعادت رأسها إلى الأمام بسرعة، وتطوحت ضفيرتها فى الهواء تعلن الاحتجاج.. ثم اسقطت عينيها فوق أصابع البيانو، وقد احتقن وجهها، وبدأت تعزف بعنف وقسوة، كأنها لا تستطيع أن تضربه، فبدأت تضرب بيتهوفن.

وقام من على مقعده ولحق بها.. وجلس بجانبها، وبدأ ينظر فى النوتة الموسيقية ويعزف على الجانب الآخر من البيانو.

وأخذا يعزفان مدة، دون أن يتكلما، ودون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، والأنغام ترتبك تحت أصابعهما.. ثم قال كأنه يحادث نفسه وهو لا يزال ينظر فى النوتة الموسيقية :

ـ بيتهوفن أطرش، ما كانش يقدر يسمع الأنين والشكوى،

وحيرة القلب.. كان بيسمع بعينيه.. وكانت عينيه ما بتشوفش إلا الطبيعة.. والبرق والرعد والشجر.. ماكانش يقدر يشوف النفس الإنسانية.

وقالت ترد عليه كأنها تلقى بقية لحن فى أوبرا ضخمة تعلمتها فى المدرسة :

ـ بيتهوفن عميق.. زى الغطاسين، لازم الواحد يغطس معاه علشان يشوف العالم اللى بيشوفه.. عالم بعيد، تحت البحر.. وبيتهوفن كان فناناً فاضلاً، كان بيعبر عن أخلاق عالية.

وخبط فتحى على البيانو بأصابعه العشرة، ثم توقف عن العزف، وقال وقد ارتفع صوته واشتد بريق القلق فى عينيه :

ـ فاضل !! يعنى ايه فاضل !! الموسيقار الفاضل ده يبقى شكله ايه.. تعرفى الفضيلة معناها ايه.. معناها الاستقرار.. استقرار القلب والروح.. معناها أن الواحد يبقى عارف سكنه فين.. يبقى شايف الطريق اللى ماشى فيه.. الفضيلة مش معناها إن الإنسان يبقى طيب وصادق، إنما معناها إن الإنسان يستقر.. يهدأ.. ومافيش فنان مستقر.. مافيش فنان عارف هو

رايح فين ولا جاى منين.. ولا عارف يحب ايه ويكره ايه.. ولا عارف ايه الصح وايه الغلط.. ولا عارف يواجه الدنيا ازاى.. المستقر ده يبقى مقاول بياض، ولا كاتب حسابات.. وأنا نفسى استقر.. نفسى أبقى مقاول ولا موظف فى بنك.. علشان استريح وأهدأ.

وسكت، ونظر إلى السقف بعينيه الواسعتين وهو يتنهد، كأنه يستغيث بالله.

ومرت بأصبعها مرورا سريعا على مفاتيح البيانو، فصدر صوت كأنه صوت مجموعة من الصحون الصينى تقع على الأرض، ثم التفتت إليه بكل رأسها وجسمها، وقالت فى هدوء :

– تعرف أنا نفسى فى ايه ؟

ورفع حاجبيه متسائلا.

واستطردت من خلال ابتسامة ضعيفة مسكينة :

– نفسى أبوسك مرة، ولا تمسحش بوستى !

وبهت. ازدادت عيناه اتساعا.. وانطلقت الدماء تحت وجنتيه، فبدت بشرته فى لون النحاس المصهور.. وقال فى تلعثم :

– إنتى عارفة إنى.

وقاطعته فى حدة كأنها على وشك البكاء :

– أنا مش عارفة.. ومش عايزة أعرف.. كل اللى عايزاه أنك ما تمسحش شفايفك قدامى.. أنت مش قادر تقدر حالتى بتبقى ازاى وأنا باشوفك بتمسح الروج.. ومش قادر تقدر أن كل أملى فى الدنيا هو إنى أشوف بوستى على خدك.. وماشى بيها قدام الناس.. وكل مرة وأنا جاية لك أقرر إنى ماحطش روج على شفايفى علشان ماترجعش تمسحه.. إنما ما قدرش.. وأقول لنفسى، يمكن الدور ده يصهين.. يمكن ينسى.. أملى هو اللى بيخلينى أحط الروج.. أنا مابحطش روج وأنا رايحة أى حتة، إلا وأنا جاية عندك.

ونظر إلى الأرض وقال وهو يعصر إحدى كفيه بالأخرى :

– أنا عارف السبب.. السبب إنى متجوز، ولو ماكنتش متجوز ما كنتيش

تعمدتی أنك تحطی روج علی شفایفك، وما كانش همك إنی أمسحه.

وقالت تقاطعه وقد بدأت سحابة من الدموع تغطی عينيها :

- ماتجبش السيرة دی.. أنا عارفة أنك متجوز، وراضية بيك وأنت متجوز..

وقال دون أن ينظر إليها، وكأنه لم يسمعها :

- ولو ما كنتش متجوز ماكنتش مسحت الروج.. الروج بتاعك على أعصابی.. كل أعصابی ملغمطة روج.. إنما ماأقدرش أسيبه على وشی.. مش لأنی خايف من مراتی، ولكنی لأنی خايف على احساسها.

قالت وهی تنظر إليه بكل عينيها :

- واحساسی أنا ؟

قال :

- هی مالهاش ذنب.. الذنب كله علينا احنا، ولازم احنا اللی نستحمل.

قالت وهی تدير رأسها ناحية البيانو، وشفتاها ترتعشان :

- أنا عارفة إنی مجرمة.

والتفت إليها ووضع يده على يدها وقال فی حنان :

- انتی مش مجرمة، ولا أنا مجرم.. أنا يوم ما اتجوزت ماكنتش عارف أنی حاقابلك، وانتی يوم ما شفتينی ما كنتيش عارفة إنك حاتحبينی.. احنا الاتنين ضحية.. ضحية الظروف.. وضحية عواطفنا.. ضحية ضعفنا.

ولم ترد.. ظلت صامتة، ودمعة لم تطق صمتها، فسقطت من عينيها.

وضغط على يدها، وعيناه تفيضان باللوعة، وقال كأنه يستنجد بها :

- مش انتی لوحدك بتتعذبی يا ليلی.. أنا باتعذب أكثر منك.

والتفتت إليه فی عصبية، وقالت فی حدة :

- تسمح تقول لی بتتعذب ازای.. ايه اللی معذبك.

وابتسم ابتسامة ساخرة، وقال كأنه يحادث نفسه :

- اللی معذبنی إنی عايش فی بيت ما أقدرش أرفع فيه رأسی، وعايش مع واحدة ما أقدرش أفتح عينی فی وشها.. واللی معذبنی إنی عارف أنك حاتسيبينی.. بعد شهر.. بعد سنة.. إنما حاييجی يوم ما تقدريش

تستحملينى فيه.. حاييجى يوم لازم تتجوزى فيه.. وينفتح قدامك مستقبل جديد.. وأنا.. أنا مش حايفضل لى إلا الماضى.. ماضى أندم عليه وأتعذب بيه.. أنا مستنى اليوم ده فى كل لحظة، وفى كل ساعة.. لما بتضربى تليفون وتقفلى السكة بابقى خايف ماتضربييش تانى.. لما بتيجى تشوفينى وتسيبينى، بابقى خايف إنك ماتجيش تانى، وأبقى حاسس إنى مش حاشوفك بعد كدة.. خوف.. خوف.. دايما خايف.. خايف منك وخايف عليك.. وخايف من مراتى وخايف عليها.. وخايف من نفسى، وخايف على نفسى.. أنا عايش فى خوف، ومتعذب بالخوف.

وانطفأت عيناه تحت جفونه كأنهما ذابتا فى عذابه، وألقى رأسه بين كفيه كأنه لم يعد يستطيع أن يحملها فوق عنقه.

ونظرت إليه وسحب الدمع تتجمع فى عينيها.. ثم ابتسمت ابتسامة حزينة.. ابتسامة أم تواسى طفلها المريض.. ثم قامت من جانبه، ووقفت قباله ومدت يدها تمسح بها على رأسه، ويدها الأخرى فوق خده، تحاول أن ترفع بها وجهه إليها.. وقالت فى صوت يقطر حنانا.

- فتحى.. بص لى.

ورفع إليها عينيه بكل ما فيهما من عذاب وخوف.

وقالت وهى تحاول أن تحتفظ بابتسامتها :

- أنا مش حاتجوز.. عمرى ما حاتجوز.. حافضل طول عمرى لك.. فيه حاجة واحدة مش عايزاك تخاف منها ولا تخاف عليها.. حبى.

وبرقت عيناه بريقا طرد عنهما الخوف والعذاب، ومد ذراعيه واحتضن خصرها المنتصب أمامه، أسند رأسه المتعب فوق صدرها.. وعاد يغمض عينيه.

وضمت رأسه إلى صدرها، كأنها تسمعه دقات قلبها، ليزداد اقتناعا.. ثم أبعدت رأسه عنها برفق.. ومرت كفها تمسح آثار الدمعة التى سقطت على خدها، ثم قالت وهى تحاول أن تنفض اللوعة عن صوتها :

- تحب ألعب لك «أول لقاء».

ونظر إليها كأنه يشكرها لأنها تخلت عن بيتهوفن..

وجلست إلى البيانو، وقفزت أصابعها كالعصافير الصغيرة البيضاء، فوق مفاتيح الانغام.. وكأن لحنا يبدأ بطيئا ملولا.. كأنه تنهدات إنسان يعيش فى فراغ.. ثم ينشط كأنه بدأ ينتشى بالأمل.. ثم يمرح كأنه وجد الحياة.. وجد الدنيا.. وجد الحب.

واستدار ناحية البيانو، وأخذ يشاركها فى العزف، وقال وكتفه يلتصق بكتفها، وقد استرد كل ابتسامته :

- فاكرة..

قالت وهى تبتسم:

- فاكرة.. زى ما يكون النهاردة..

قال :

- أنا يوم ما عملت اللحن ده، اتهيألى إنى ماعملتش حاجة قبله، ولا حاعمل حاجة بعده.. كنت بالحن كأنى بأكلمك.. كأنى باحكيلك على كل حاجة.. و...

وسمع صوت باب البيت يفتح.. وبحركة عنيفة، ابتعدت عنه.. وابتعد عنها.. ثم مدت يدها تساوى شعرها دون أن تدرى ماذا تساوى منه.. واستمرت فى العزف، واستمر يعزف معها.. وقد ازداد ابتعادا عنها، حتى أصبح يجلس على المقعد الطويل بساق واحدة.

ودخلت سيدة على شفتيها ابتسامة حلوة هادئة..

فى الثلاثين من عمرها.. سمراء.. تشد شعرها الأسود فوق رأسها، وتعقصه إلى الخلف كأنها تحمل تاجا توجها به الليل من فرط احترامه لها.. تميل قليلا إلى القصر.. نحيفة.. كأنها تعانى هزالا تقاومه.. ووجهها مريح.. ليس جميلا.. ولكنه مريح، تحب أن تنظر إليه، ولا تشبع من النظر إليه.. وتشع حولها شخصية قوية.. وذكاء طيب.. وحب هادىء.

وتوقفت ليلى عن العزف بمجرد دخولها، ثم قامت واقفة، وهى تحاول أن تستر ارتباكها بابتسامتها.. وقالت وصوتها يهتز فوق شفتيها :

- ازيك يا طنط.

ومدت عواطف يدها إليها، وقالت وقد اتسعت ابتسامتها الحلوة بين شفتيها العريضتين :

- ازيك يا حبيبتى.. وازى ماما.. انتم لسة بتتمرنوا.

وقال فتحى، وهو يضع يده فى جيب بنطلونه وينظر إلى بوز حذائه، ويغتصب من بين شفتيه ابتسامة :

- بطلنا تمرين خلاص.. حضرتها جاية وجايبة معاها بيتهوفن.

ونقلت عواطف عينيها بين زوجها وليلى، دون أن تفتر ابتسامتها، ثم قالت كأنها تخاطب طفلين :

- طيب خليكو قاعدين مع بيتهوفن، لغاية ما أعمل الشاى.

وقالت ليلى بسرعة :

- بلاش يا طنط.. أنا لازم أروح دلوقت.

وقالت الزوجة، بلا إلحاح :

- مش تخليكى لما تشربى معانا الشاى.

وقالت ليلى، وهى تنظر فى الساعة الصغيرة المعلقة فى معصمها :

- ياه.. دى الساعة بقت ستة ونص.. ما أقدرش والنبى يا طنط.

وابتسمت الزوجة فى طيبة، وقالت :

- طيب يا حبيبتى.. سلمى على ماما.. وقولى لها إنى حافوت عليها قريب.

وقالت ليلى وهو تمد يدها إلى فتحى دون أن تنظر إلى وجهه :

- بونسوار يا أستاذ.. أنا حاقول للبروفسير تيجرمان أنك مابتحبش بيتهوفن، علشان يعرف شغله معاك.

وقال فتحى وهو ينظر إليها كأنه يهنئها على قوة أعصابها :

- مع السلامة.

ثم بحث فوق صندوق البيانو عن علبة سجائره، وأخرج سيجارة وبدأ يشعلها كأنه لا يريد أن يرى ليلى وهى تبتعد عنه.

ولفت الزوجة ذراعها حول خصر ليلى وسارت معها حتى الباب، وهى تقول لها :

- انتى احلويتى قوى يا ليلى.. يالا اتشطرى وهاتى لنا عريس كويس.

وقالت ليلى وهى تفتعل ضحكة صغيرة :

- مش لما آخد الدبلوم الأول.

وقالت الزوجة فى مرح :

- ماتبقيش عبيطة.. تعملى بالدبلوم ايه..



وخرجت ليلى.

ونزلت السلم، وقامتها مفرودة، وأنفاسها كلها محتبسة فى صدرها.. ثم سارت فى الحديقة الصغيرة وهى تبذل مجهودا كبيرا حتى توازن خطواتها.. كانت تشعر بأن عينى عواطف لا تزالان تتبعانها، وتثقبان ظهرها.. وكانت تريد أن تبدو طبيعية فى خطواتها.. وقد أدى المجهود العصبى - الذى تبذله لتبدو طبيعية - إلى تصلب قامتها، واحتباس أنفاسها واحتقان وجهها، وارتباك خطواتها.. ثم ما كادت تخرج إلى الشارع وتبتعد عن البيت بضع خطوات، حتى اطلقت أنفاسها كلها وأراحت قامتها، واستندت بيدها على جذع شجرة، كأنها تستريح بعد أن اجتازت منطقة الخطر.. ثم عادت تسير وفى رأسها دوى.. قطع موسيقية عنيفة تملأ رأسها وتملأ أذنيها، دون أن تستطيع أن تميزها.. ومنذ كانت صغيرة وكل احاسيسها تتجاوب فى نفسها أنغاما موسيقية.. فرحتها موسيقى حزنها موسيقى.. واحساسها بالصداع أو المرض له موسيقى.. أحيانا موسيقى بشعة مؤلمة تطن فوق عظامها وتكاد تنخرها.

وهى لا تدرى متى بدأت هوايتها للموسيقى.. فقد تفتح وعيها وهى جالسة أمام البيانو، وأفراد عائلتها ملتفون حولها ينظرون إليها باعجاب وحب، ويعرضونها لضيوفهم كأنها معجزة.. وكانت مدللة.. وكانت الوحيدة بين أخوتها التى لم ينهرها أبوها أبدا.. ولا خافت منه أبدا.. كان كل أخوتها يخافون منه ويتهربون من مجلسه، ما عداها هى.. كانت لا تخافه، ولا ترهبه.. كانت تجلس على ركبتيه وتشد شاربه وتخلع طربوشه من على رأسه وتلقيه على الأرض.. فيضحك.. وينهال عليها تقبيلا.. وهى وحدها التى كان يقبلها.. لم تره أبدا يقبل أحدا من أخواتها البنات أو الصبيان.. وكانت أحيانا تتساءل لماذا لا يقبلهم كما يقبلها؟ ولماذا لا يضحك لهم كما

يضحك لها؟ وكانت تدهش لماذا لا يمسك أخوها أحمد بطربوش أبيه ويلقيه على الأرض كما تفعل هى.. ولم يستطع عقلها الصغير أن يفسر كل هذا.. لم يستطع أن يتبين أنها صغرى أخوتها، وإن أباها رزق بها على كبر، فضعف أمامها وانقاد لحنانه وعواطفه.. وأعطاها كل ما حرمه على نفسه وحرمه على عائلته من مظاهر التدليل والحب.. لم تستطع أن تفسر كل ذلك، ولكن ثبت فى عقلها الصغير أن أبها هو أبوها وحدها هو ملك خاص لها دون أخوتها..

وحتى بعد أن شبت وأصبحت فى التاسعة من عمرها.. ظل هذا الاحساس مختبئا فى أعماق نفسها.. إحساسها بأن أباها هو أبوها وحدها دون اخوتها.. وقد أحبته.. لم تحب شيئا آخر، سوى الموسيقى.. لم يكن لها لعب ولا صديقات.. فقط أبوها والموسيقى.. وقد وصل حبها لأبيها إلى حد أن كانت تغار عليه.. وكانت تبكى إذا سمعت أحدا من اخواتها يشكو منه، أو يثور على قسوته.. وظل أبوها يدللها،إلى حد الانهيار أمامها.. ثم كانت هوايتها للموسيقى دافعا آخر لتدليلها.. فهى لا تلعب كما تلعب البنات حتى تخطىء وتستحق العقاب.. كل لعبها على أصابع البيانو.. وهو ليست مطالبة باستذكار دروسها، لأنها دائما تذاكر دروس الموسيقى.

لقد كانت عروس البيت.. كانت ملكة البيت.

ثم مات والدها وهى فى التاسعة من عمرها.

وأحست أنها فقدت عرشها.

أحست أن أحدا فى البيت لم يفقد أباه، إلا هى.

وقد شعر كل من فى البيت بأثر الصدمة عليها، فحاول كل منهم أن يعوضها عن أبيها بحنانه وتدليله.. نالت مزيدا من الدلال.. ومزيدا من الحنان.. ومزيدا من الحب.. ولكن بقى فى نفسها جانب حزين، لم يستطع أحد أن ينزعه منها.. وكانت تحمل حزنها وتجس أمام البيانو.. وتعزف ساعات طوالا.. وحدها.. إنها لا تريد شيئا إلا أن تبقى وحدها أمام البيانو.. ظلت بلا صديقات، وبلا شىء تهتم به.. فقط، البيانو.. وكانت تحب

امها وتحب أخوتها، وكانت تحس بحبهم لها.. ولكنها فى قرارة نفسها كانت بعيدة عنهم.. كانت لها دنيا خاصة تقيمها من الألحان فوق أصابع البيانو.

ومع الأيام، بدأت ذكرى أبيها تبتعد، ويحل محلها مزيد من الاقبال على البيانو ومزيد من الاحساس بالموسيقى.. ثم تجسدت هوايتها للموسيقى فى أشخاص الموسيقيين.. أصبح فرسان خيالها، هم شوبان وبيتهوفن، وموزارت، وتوسكانينى.. كانت تعلق صورهم فى ضلفة دولابها، كما تعلق البنات صور نجوم السينما.. وكانت تقرأ قصص حبهم.. وتتمنى أن تعيش فى عصر كل منهم، وأن تحبه ويحبها.. ويتزوجها.

وعندما التحقت بمعهد الاستاذ «تيجرمان» للموسيقى.. أصبح الاستاذ نفسه بطلا من أبطال خيالها.. ثم أخذ خيالها يستبد بها حتى أصبح نوعا من الحب.. نوعا غريبا من الحب.. إن الاستاذ رجل عجوز، مصاب بالربو، عصبى المزاج.. وهى فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها.. ورغم ذلك خيل إليها أنها تحبه.. كانت تحبه فعلا.. هذا النوع الغريب من الحب.. وكانت تتمنى فى قرارة نفسها أن تصاب بالربو مثله.. وبدأت تقلده فى عصبيته.. وفى جلسته أمام البيانو، وفى طريقته التى يقرأ بها النوتة الموسيقية.. وبدأت تغار عليه من باقى التليمذات، وتثور إذا سمعت واحدة منهن تنتقده.. وكان الأستاذ بدوره يحبها، ويدللها.. كما كان يفعل أبوها.. كان يحبها لأنها أبرع تلميذاته وأكثرهن احساسا بالموسيقى.. كان يفخر ويباهى بها، ويقدمها فى كل الحفلات الموسيقية.

وكانت تعرف فتحى.. تعرفه من بعيد.. كان يسكن فى نفس الشارع، كانت زوجته تأتى لزيارتهم فى فترات متباعدة.. وكان هو يأتى لزيارتهم فى فترات أكثر تباعدا.. فى المناسبات.. وكانت تعرف أنه موسيقى.. وأنه ملحن.. ولكنه كان بالنسبة لها يعيش فى عالم آخر.. إنها تعشق الموسيقى الغربية، وهو يلحن الموسيقى العربية.. وبينها وبين نفسها كانت تستخف به، كما تستخف بالموسيقى العربية كلها.. إنها موسيقى تهز الخصر، وهى لا تعترف إلا بالموسيقى التى تهز الروح.